رواية _ميزان العدالة

للكاتبة _ياسمين بن يخو

الفهرس:

ليلة انكسر فيها الربيع

الرجل الذي لا يبتسم

رجل لا ينام

أربكتني عيونك

المدينة التي تشتعل

لم يكن يتيما

مابين القسوة و النبض

حين يضيق الخناق

قرار تحت المطر

العودة الى القصر

الفرار

صمت غير مريح

بدأت روما تتكلم

الظل الذي لا يُرى

إسم مزيف

اختبار الثقة

الإعتراف

بين نارين

حين يصبح الاحتواء وطنًا

حين يسبق القلب الإعتراف

بين المطرقة و القلب

الابتسامة التي تخفي السكين

في الزنزانة

فطور تحت الشمس

أول الخيط حين يصبح البيت ساحة مواجهة

تراتيل الدم

ترانيم التسلل

ترنيمة الحرية المقيدة

برزخ الزجاج.. والسر المكتوم

لم شتات الروح

ميزان الدموع.. وحكم القدر

حطام القضاة

رماد المنصب.. وجمر الوفاء

صرخة في الوادي

ميثاق خلف القضبان

ميزان القلب.. واللقاء الاخير

ميثاق المزرعة.. والهروب نحو الحياة

نهاية

خاتمة

اهداء

المقدّمة

العدالة ليست ميزانًا من حديد كما يظنّ الناس،

وليست مطرقةً تُنزل حكمًا ثم تنتهي الحكاية.

العدالة كفّتان...

إحداهما تُمسك بالقانون،

والأخرى تمسك بالحقيقة.

لكن ماذا يحدث حين يُوضَع القلب في إحدى الكفّتين؟

حين يقف الحبّ في مواجهة النصوص،

وتتحوّل المشاعر إلى دليل إدانة؟

هل يبقى الميزان مستقيمًا؟

أم ينحني... ولو للحظة؟

هذه ليست قصة جريمة فقط،

ولا حكاية قاضية ومتهم.

إنها حكاية ميزانٍ اختُبر حين تلاقى الواجب بالعشق،

وحين أصبح الحكم... طريقًا إلى الخلاص،

لا إلى الانتقام.

الفصل الأول

ليلةٌ انكسر فيها الربيع

روما – ربيع 2016

كان الليلُ قد أسدل ستاره على التلال المحيطة بروما، لكن الربيع لم يكن نائمًا.

نسيمٌ عليل كان يمرّ بين أشجار السرو المحيطة بقصر ويليام والكر، حاملاً رائحة العشب الرطب وأزهار البرتقال المتفتّحة. بدا المكان هادئًا حدّ الطمأنينة... هدوءٌ لا يشبه إلا اللحظات التي تسبق العاصفة.

في الطابق العلوي من القصر، جلست لونا والكر أمام مكتبها العاجي، تُراجع مذكّراتها القانونية.

كانت في سنتها الأخيرة بكلية الحقوق في جامعة روما، تحلم بأن ترتدي يومًا وشاح القضاء الأسود، وأن يكون اسمها مرادفًا للعدل، لا لثروة أبيها.

أغلقت الكتاب ببطء، ونهضت نحو النافذة.

السماء كانت صافية، والقمر معلقًا كقطعة فضة باردة.

تمتمت لنفسها:

“ما أجمل أن تكون الحياة بسيطة...”

في الأسفل، كان الحراس يتبادلون الأحاديث الخافتة قرب البوابة الحديدية الضخمة. لم يكونوا يعلمون أن في الظلال، خلف الأشجار، كانت هناك عيون تراقب القصر منذ أيام.

سيارات سوداء بلا لوحات توقفت على مسافة بعيدة.

رجال يرتدون السواد، وجوههم مخفية، يتحركون بصمتٍ مدروس.

لم يكن الهدف عشوائيًا...

كان القصر مرصودًا منذ أسبوع كامل، بعد التأكد من أن السيد ويليام والكر في رحلة عمل قصيرة إلى فلورنسا.

أحدهم همس عبر جهاز الاتصال:

“المنزل شبه خالٍ. ثلاث حراسات فقط عند المدخل.”

لم يكن بينهم ليو مولر تلك الليلة.

كان بعيدًا عن العملية، منشغلًا في ترتيب شحنة سابقة في مستودع خارج المدينة، دون أن يعلم أن القدر كان يُعدّ له مواجهةً لم يخطط لها.

عند منتصف الليل تمامًا، تحرّكت الظلال.

انفجرت البوابة بصوتٍ مكتوم بعد تعطيل نظامها الإلكتروني.

دوّى أول إطلاق نار.

صرخة حارس اخترقت سكون التلال.

تبعها اشتباكٌ خاطف، عنيف، لكنه محسوب.

في الأعلى، تجمّدت لونا مكانها.

سمعت الصوت بوضوح.

لم يكن وهمًا.

قلبها بدأ يخفق بقوة.

خطت نحو الباب بخوف، وما إن فتحته حتى سمعت ارتطامًا قويًا في الأسفل وصراخًا مكتومًا.

لم تفكر كثيرًا. أغلقت الباب بالمفتاح، والتقطت هاتفها بيدٍ مرتجفة.

لكن قبل أن تضغط أي رقم، سُمِع صوت كسرٍ عنيف...

خطوات ثقيلة تصعد الدرج بسرعة.

تراجعت نحو منتصف الغرفة، أنفاسها تتسارع، وعيناها متسعتان بالرعب.

انفتح الباب بعنف.

دخل رجلان ملثمان.

أحدهما ثبت نظره عليها للحظة...

لم يتوقعا وجود أحد.

صرخت.

صرخة حادة، طويلة، ارتطمت بجدران القصر.

اقترب أحدهما بسرعة، وضع يده على فمها، والآخر قال بحدة:

"لم يُذكر وجود فتاة!"

قاومت بكل قوتها، دموعها تنساب دون إرادة.

كانت ترتجف، لكن في عينيها لم يكن الخوف وحده... بل صدمة الخيانة للهدوء الذي سبق العاصفة.

قال أحدهم بصوتٍ منخفض:

"لا يمكن أن نتركها هنا. ستفضحنا."

"خذوها."

في لحظة واحدة، انقلب الربيع إلى ظلام.

حُملت لونا خارج غرفتها، قلبها يخفق بعنف، ودموعها تبلل وجنتيها، بينما كانت تنظر للممر الطويل للقصر... كأنها تودّعه.

لم تكن تعلم أن تلك الليلة لن تسرق حريتها فقط...

بل ستقودها إلى رجلٍ سيُغيّر معنى العدالة في حياتها إلى الأبد.

وانطلقت السيارات السوداء من التلال، تاركة خلفها قصرًا مضاءً بأضواء الطوارئ، وحراسًا جرحى، وربيعًا انكسر بصمت.

الفصل الثاني

الرجل الذي لا يبتسم

كان المستودع يقع في أطراف نابولي، قرب الميناء القديم، في منطقةٍ هجرتها المصانع منذ سنوات.

جدرانه إسمنتية عارية، تتدلّى منها مصابيح صفراء باهتة، وتفوح في داخله رائحة الحديد والزيت والرطوبة.

عند الفجر، توقفت السيارات السوداء أمام الباب المعدني الضخم.

فُتح بصوتٍ احتكاكيٍّ أجشّ.

أنزلوها بسرعة.

كانت لونا مقيّدة اليدين، معصوبة العينين، وأنفاسها متقطعة من شدّة البكاء.

لم تكن تصرخ الآن... كانت في صدمةٍ ثقيلة، كأن عقلها لم يستوعب بعد ما يحدث.

أُجلست على كرسي خشبي في غرفة جانبية، أُزيلت العصابة عن عينيها.

أول ما رأته كان الضوء الأصفر المائل، ثم وجوهًا غريبة تراقبها.

أحد الرجال تمتم وهو يحدّق فيها:

“لم يخبرنا أحد أن الهدف لديه ملاك في الطابق العلوي.”

نظراتهم لم تكن رحيمة... لكنها لم تكن وحشية تمامًا.

كانت نظرات رجالٍ اعتادوا القسوة، لكنهم لم يتوقعوا هذا الخطأ.

قال آخر ببرود:

“القائد سيغضب.”

في تلك اللحظة، فُتح الباب.

ساد صمتٌ مفاجئ.

دخل ليو مولر.

لم يكن طويلًا بصورةٍ مبالغٍ فيها، لكنه كان يمتلك حضورًا يجعل الغرفة تضيق بغيره.

ملامحه حادة، عينيه رماديتان باردتان، وخطواته ثابتة كمن تعوّد أن يُطاع.

نظر أولًا إلى رجاله.

ثم إلى الفتاة المقيّدة أمامه.

توقّف الزمن للحظة.

لم يتغير وجهه.

لم يظهر دهشة، ولا غضبًا، ولا إعجابًا.

لكن في أعماقه، حدث شيءٌ صغير… شيء لم يفهمه.

قال بصوتٍ منخفضٍ حازم:

"ما هذا؟"

أجابه أحدهم:

"كانت في القصر. صرخت. لم يكن لدينا خيار."

ظلّ ينظر إليها.

كانت شاحبة شقراء شعرها منسدل وهو بلون القمح تحت شمس الربيع، وعيناها خضراوان صافيتان كسهول توسكانا بعد المطر

تلمعان بدموعٍ لم تجفّ.

قال ببرود:

"فكّوا عنها الحبل."

تبادل الرجال النظرات.

لكنه لم يكرر أمره.

اقترب أحدهم وفكّ قيودها.

سقطت يداها إلى جانبها، لكنها لم تتحرك.

كانت تحدّق فيه... مباشرةً في عينيه.

همست بصوتٍ مكسور:

"أرجوك... دعني أذهب. لن أقول شيئًا."

لم يقترب منها.

لم يلمسها.

ظلّ واقفًا على مسافةٍ محسوبة.

قال:

"اسمك."

"لونا... لونا والكر."

لم يظهر على وجهه أي ارتباك، لكنه أدرك فورًا حجم الورطة.

ابنة ويليام والكر.

اسمٌ ثقيل.

اسمٌ لا يُختطف بلا عواقب.

استدار نحو رجاله:

"الجميع إلى الخارج."

"لكن—"

“قلت إلى الخارج.”

خرجوا.

بقي هو وهي في الغرفة.

سُمِع صوت باب يُغلق، ثم ساد صمتٌ ثقيل.

اقترب خطوة واحدة فقط.
كانت كافية لتشعر بقوته، بهيبته، بخطره.

قال بهدوء:
“لن يمسّك أحد بسوء.”

رفعت رأسها نحوه، عيناها تمتلئان رجاءً:
“إذن أطلق سراحي.”

توقّف قليلًا.
نظر إلى الأرض، ثم إليها.

“ليس بعد.”

انكسرت دمعة على خدّها.

أدار ظهره لها، كأن بكاءها يزعجه بطريقةٍ لا يريد الاعتراف بها.

"ستبقين هنا حتى نقرر ما نفعل. إذا حاولتِ الصراخ أو الهرب، فلن أكون أنا من يوقفهم."

لم يكن تهديدًا مباشرًا... لكنه كان تحذيرًا صادقًا.

خرج من الغرفة وأغلق الباب.

وفي الخارج، اشتعلت الهواتف.

الخبر وصل إلى روما.

إلى فيلا والكر.

إلى الشرطة.

إلى الصحافة.

□

□الفصل الثالث

رجلٌ لا ينام

في روما، كان ويليام والكر قد عاد على عجلٍ من فلورنسا.

وجهه كان شاحبًا، لكن صوته ظلّ ثابتًا وهو يستمع لتقرير الشرطة.

"اختطاف؟"

قالها ببطءٍ مخيف.

أجابه المفوض ماركو روسّي:

“نعتقد أن الهدف كان السرقة، لكن وجود ابنتكم لم يكن في الحسبان.”

قبض ويليام على عصاه بقوة.

“أريدها خلال أربعٍ وعشرين ساعة.”

“سنبذل كل ما في وسعنا.”

لم يكن طلبًا.

كان أمرًا.

⸻

في المستودع، كانت لونا تجلس على الأرض، ظهرها إلى الحائط.

لم يعد أحد يربطها.

لكن الباب مغلق.

مرّت ساعات.

عند المساء، فُتح الباب بهدوء.

دخل ليو يحمل كوب ماء وقطعة خبز.

وضعهما على الطاولة دون أن ينظر إليها مباشرة.

قال:

“كلي.”

لم تتحرك.

“لن أموت جوعًا.”

أجابها ببرود:

“لكنني لا أريدك أن تموتي.”

رفعت عينيها نحوه.

كان يقف قرب الباب، كأنه يخشى الاقتراب أكثر مما ينبغي.

سألته فجأة:

“هل لديك أخت؟”

تفاجأ بالسؤال.

“لا.”

“أم؟”

تصلّب وجهه قليلًا.

ثم قال بصوتٍ أخفض:

“أنا يتيم.”

ساد صمتٌ قصير.

“إذن تعرف معنى أن يفقدك أحد.”

شيءٌ ما تحرّك في عينيه… ذكرى قديمة، غامضة، موجعة.

لكنه أخفاها بسرعة.

“نامي. غدًا يومٌ طويل.”

خرج.

وللمرة الأولى منذ اختطافها، لم تشعر لونا بالخوف منه.
بل بشيءٍ آخر…
شيءٍ يشبه الفضول.

الفصل الرابع

العيون الخضراء التي أربكت الظلام

مرّت الليلة الأولى ثقيلة كأنها عامٌ كامل.

عند الصباح، تسلّل خيط ضوءٍ باهت من نافذةٍ عالية في الغرفة، فسقط على شعر لونا الأشقر، فبدا كأنه يشتعل بذهبٍ هادئ.

جلست بصمت، تضمّ ركبتيها إلى صدرها، وعيناها الخضراوان تحدّقان في الفراغ.

كانت تسمع أصوات الرجال في الخارج. ضحكات خشنة، خطوات ثقيلة، صوت شاحنة تُفرغ صناديق.

ثم فجأة، ارتفع صوت جدال.

“قلتُ لك لا تلمسها!”

كان صوت ليو.

“نحن نُخاطر بحياتنا بسببها!” ردّ أحدهم بحدّة.

فُتح الباب بعنف.

دخل ليو، أمسك بأحد رجاله من سترته ودفعه بقوة إلى الحائط.

“اسمعني جيدًا يا كارلو... إذا نظرتَ إليها مرةً أخرى بهذه الطريقة، فلن تحتاج إلى الشرطة لتُدمّر حياتك.”

ساد صمتٌ مشحون.

لم يرفع صوته.

لكنه كان مخيفًا أكثر حين يهمس.

خرج الرجل غاضبًا.

أغلق ليو الباب، واستدار ليجد لونا واقفة قرب النافذة.

قالت بهدوءٍ متوتر:

“لا أحتاج إلى حمايتك.”

نظر إليها طويلًا.

الشمس على شعرها جعلته يشيح بوجهه لحظة، كأن الضوء يزعجه.

“وأنا لا أحتاج إلى الامتنان.”

في تلك الليلة، عندما خفّت الأصوات وعمّ الصمت، جرّبت لونا مقبض الباب.

كان غير محكم تمامًا.

فتحته ببطء.

الممرّ مظلم.

قلبها يخفق بجنون.

خطت خطوة... ثم أخرى...

كادت تبلغ الباب الخلفي حين شعرت بقبضةٍ قوية تمسك بذراعها.

التفتت فزعة.

كان هو.

قال بهدوءٍ بارد:

“إلى أين؟”

“إلى حياتي.”

تقدّمت نحوه بشجاعةٍ مفاجئة:

“أنت لستَ وحشًا… أرى ذلك في عينيك. فلماذا تعيش كواحد؟”

سؤالها أصابه في موضعٍ لم يُلمس منذ سنوات.

لكنه أجاب بجمود:

“لأن الوحوش لا تُسأل عن السبب.”

أعادها إلى الغرفة، لكنه لم يُقفل الباب هذه المرة.

تركه مواربًا.

□

□الفصل الخامس

المدينة التي تشتعل

في روما، كانت القضية تتصدّر العناوين.

“اختطاف ابنة رجل الأعمال ويليام والكر.”

“المافيا تعود إلى الواجهة.”

المفوض ماركو روسّي أعلن عن مداهماتٍ في نابولي وصقلية.

في تلك الأثناء، نفّذت عصابة ليو عملية سطوٍ أخرى على مخزن شحنٍ بحري تابع لشركة منافسة لوالكر.

العملية كانت دقيقة:

تعطيل كاميرات.

قطع كهرباء.

انسحاب خلال سبع دقائق.

لكن خطأً واحدًا وقع.

كاميرا مخفية لم تُكتشف.

بدأ الخناق يضيق.

الفصل السادس

لم يكن يتيمًا

في إحدى الأمسيات، جلس ليو قبالة لونا لأول مرة دون مسافةٍ كبيرة بينهما.

كانت قد توقفت عن البكاء.

أصبحت تتحدث معه.

تسأله عن البحر، عن طفولته، عن اسمه.

قال لها:

“أنا يتيم. لا شيء يُذكر.”

لكن تلك الليلة، حين عاد إلى مكتبه الصغير في طرف المستودع، فتح درجًا قديمًا وأخرج سلسلة فضية.

حرفان منقوشان:

L ... و T

لم يكن يعلم معنى الحرف الثاني.

لكنه احتفظ بها منذ كان في الرابعة.

تذكّر وجهًا غامضًا...

امرأة تبكي.

رجل يصرخ.

ثم ظلام.

اسمٌ يتردّد في ذاكرته:

جاكوب مورو.

الرجل الذي ربّاه.

الطاغية الذي كان يختطف الأطفال ليصنع منهم ورثته.

"أنت ابني الآن."

كان يقولها دائمًا.

لكن قبل خمس سنوات، مات جاكوب.

وترك خلفه إمبراطوريةً من الخوف...

وسرًا لم يُكشف بعد.

الفصل السابع

ما بين القسوة والنبض

بدأ ليو يتغيّر دون أن يشعر.

أصبح يُحضر لها الطعام بنفسه.

أزال القفل نهائيًا.

سمح لها بالتجوّل في ساحة المستودع تحت نظره.

كانت تمشي قربه أحيانًا، قريبة بما يكفي لتسمع أنفاسه.

قالت له ذات مرة:

"لو أردتَ، يمكنك أن تختفي. أن تبدأ من جديد."

ضحك بسخريةٍ خافتة.

"الرجال مثلي لا يبدؤون من جديد... نحن ندفع ثمن البدايات التي لم نخترها."

لكن حين نامت تلك الليلة، بقي واقفًا عند الباب ينظر إليها طويلًا.

شيءٌ في عينيها الخضراوين...

شيءٌ يشبه الأمل.

وكان الأمل أخطر عليه من الرصاص.

الفصل الثامن

حين يضيق الخناق

كان المساء ثقيلاً في المستودع.

الهواء مشبع برائحة المطر القريب، وصوت البحر البعيد يتكسّر كأنّه تنفّسٌ متعب.

في المكتب الصغير، كان ليو يقف أمام طاولة خشبية تتكدّس فوقها خرائط ومخططات.

دخل كارلو مسرعًا، وجهه متوتر.

كارلو: الشرطة داهمت مخزن “سان لوتشيا”.

ليو: هل أُصيب أحد؟

كارلو: قبضوا على إنزو.

ليو: (يصمت لحظة) هل تكلّم؟

كارلو: ليس بعد… لكنهم لن ينتظروا طويلاً.

سحب ليو نفسًا عميقًا، ثم أطفأ السيجارة بين أصابعه ببطء.

ليو: أخطأنا.

كارلو: في ماذا؟

ليو: في الظنّ أن الماضي لا يعود.

نظر كارلو إليه باستغراب.

كارلو: ماذا عن الفتاة؟

ليو: ماذا عنها؟

كارلو: وجودها خطر علينا.

ليو: وجودها خطر عليّ.

لم يفهم كارلو قصده.

لكنّه فهم من نبرة صوته أنّ النقاش انتهى.

في الغرفة

كانت لونا تجلس على الأرض قرب النافذة العالية، تراقب السماء الرمادية.

فُتح الباب بهدوء.

دخل ليو.

لونا: هل حدث شيء؟

ليو: لماذا تظنين ذلك؟

لونا: لأن خطواتك أثقل من الأمس.

اقترب وجلس على الكرسي المقابل لها.

صمتٌ قصير.

لونا: هل ستقتلني إذا اقتربت الشرطة؟

ليو: (ينظر إليها بحدّة) لا.

لونا: إذن ماذا ستفعل؟

ليو: سأتحمّل أنا ما يجب أن أتحمّله.

كانت عيناه هذه المرّة مختلفتين...

لم تكونا باردتين كما اعتادت.

كان فيهما تعبٌ قديم.

لونا: لماذا تفعل هذا بنفسك؟

ليو: أفعل ماذا؟

لونا: تختبئ خلف قسوتك.

ليو: (يبتسم بسخرية خفيفة) أنتِ لا تعرفين شيئًا عني.

لونا: أعرف أنك لست كما تدّعي.

تصلّب فكه.

ليو: وماذا ترين؟

لونا: أرى رجلاً يخاف أن يُحب... لأنه لم يُحبّ من قبل.

ساد صمت طويل.

كان صوت المطر قد بدأ بالخارج.

ليو: الحبّ ضعف.

لونا: لا... الحبّ شجاعة.

ليو: الشجاعة أن تبقي صامتة كي لا يموت أحد بسببك.

لونا: ومن قال إنني صامتة خوفًا؟

اقترب خطوة دون أن يشعر.

ليو: إذن لماذا لم تحاولي الصراخ مجددًا؟

لونا: لأنني لا أريد أن يُصاب أحد... ولا حتى أنت.

للمرة الأولى، ارتبك.

شيءٌ ما في صدره تحرّك بعنف.

لم يكن معتادًا أن يُخشى عليه.

▯

الاعتقال الأول

في تلك الليلة، دوّى هاتف ليو.

أجاب ببرود.

ليو: نعم.

الصوت: إنزو انهار. اعترف ببعض الأسماء.

ليو: اسمي؟

الصوت: ليس بعد. لكن المسألة وقت.

أغلق الهاتف ببطء.

دخل الغرفة.

لونا: ما الأمر؟

ليو: ربما ستغادرين قريبًا.

لونا: ماذا تقصد؟

ليو: إذا سقطتُ، لن أسمح أن تسقطي معي.

وقفت فجأة.

لونا: لا تتخذ قرارات عني!

ليو: أنا أحميك.

لونا: لم أطلب حمايتك!

ليو: وأنا لم أطلب أن تُختطفي!

سكتا.

كانت أنفاسهما متسارعة.

لونا: (بصوت أخفض) أنا لا أكرهك.

ليو: يجب أن تفعلي.

لونا: لا أستطيع.

تجمّد للحظة.

اقترب منها أكثر، حتى صارت المسافة بينهما أنفاسًا.

ليو: لونا... أنا رجل لا مستقبل له.

لونا: وأنا لا أبحث عن المستقبل... أنا أبحث عن الحقيقة.

مدّ يده دون وعي، كاد يلمس شعرها الأشقر...

ثم تراجع.

ليو: عودي إلى غرفتك.

خرج قبل أن يرى الدموع في عينيها.

القرار

في الخارج، كانت أصوات الرجال متوترة.

كارلو: ماذا سنفعل؟

ليو: نُفرّق الشحنة. نُحرق المستندات.

كارلو: والفتاة؟

ليو: (ينظر بعيدًا) سأُعيدها.

كارلو: ماذا؟!

ليو: لن تموت بسببي.

كان هذا القرار بداية النهاية...

وبداية قصةٍ أخرى لم يكن مستعدًا لها.

الفصل التاسع

قرار تحت المطر

كان المطر ينهمر بغزارة على سطح المستودع، كأن السماء تُصرّ على غسل المدينة من خطاياها.

وقف ليو قرب النافذة الحديدية، يراقب المياه تنساب في الساحة الطينية.

دخل كارلو مجددًا، وجهه متوتر أكثر من السابق.

كارلو: الشرطة نصبت حواجز على الطريق الساحلي.

ليو: توقعت ذلك.

كارلو: واسمك بدأ يُذكر في التحقيق.

ليو: ليس رسميًا.

كارلو: بعد يومين سيكون رسميًا.

صمت.

كارلو: لا تقل لي إنك ما زلت تفكر في إطلاقها.

ليو: ليس تفكيرًا. قرار.

كارلو: ستعود وتتكلم.

ليو: لن تتكلم.

كارلو: تثق بها إلى هذا الحد؟

ليو: أثق بحساباتي.

لم تكن المسألة ثقة...

بل تقديرًا باردًا لطبيعتها.

عرف أنها ليست من النوع الذي يندفع بدافع الانتقام.

□

داخل الغرفة

كانت لونا تقف أمام النافذة، تراقب المطر.

فُتح الباب.

دخل ليو دون أن يتكلم.

لونا: هل حان الوقت؟

ليو: لأي شيء؟

لونا: للنهاية.

تقدّم خطوة.

ليو: ستعودين إلى منزلك الليلة.

لونا: (تحدّق فيه بتركيز) لماذا؟

ليو: لأن وجودك هنا لم يعد منطقيًا.

لونا: وهل كان منطقيًا يومًا؟

ليو: في ذلك الوقت… نعم.

اقترب من الطاولة، وضع عليها هاتفها المحمول.

ليو: ستُعصبين عينيك مجددًا. سنتركك قرب الطريق المؤدي إلى التلال.

لونا: وأنت؟

ليو: هذا ليس شأنك.

سكتت لحظة، ثم قالت:

لونا: إذا قبضوا عليك...

ليو: لن يحدث.

لونا: وإذا حدث؟

ليو: اعتبري أنني لم أكن موجودًا.

كانت إجاباته حاسمة، خالية من العاطفة.

لكن عينيه لم تكونا كذلك تمامًا.

□

لحظة المغادرة

في السيارة، كانت معصوبة العينين كما في الليلة الأولى.

لكن قلبها لم يكن مرتعبًا كما كان.

السيارة توقفت.

فُتح الباب.

ليو: انزلي.

نزلت ببطء.

وقف أمامها لحظة صامتة.

لم يقل "اعتني بنفسك".

لم يقل "لا تذكري اسمي".

قال فقط:

ليو: لم يحدث بيننا شيء.

لونا: (تبتسم بمرارة) هذا ما سيقوله الجميع… نعم.

أزال العصابة عن عينيها.

كانت أضواء بعيدة تلمع من القصر.

لونا: هل كان اسمك حقيقيًا؟

ليو: أيّ اسم؟

لونا: ليو مولر.

ليو: (يصمت لحظة) لا يهم.

استدار عائدًا إلى السيارة.

لكنها قالت فجأة:

لونا: أنت لست يتيمًا.

توقّف.

لم يلتفت.

ليو: كلنا أيتام بطريقةٍ ما.

ثم رحل.

وقفت وحدها على الطريق، المطر يبلل شعرها الأشقر، وعيناها الخضراوان تراقبان السيارة حتى اختفت.

□

□الفصل العاشر

العودة إلى القصر

عندما وصلت لونا إلى البوابة، انهارت والدتها باكية وهي تعانقها.

بعد دقائق، دخل ويليام والكر بخطوات سريعة.

ويليام: هل آذوك؟

لونا: لا.

ويليام: هل لمسك أحد؟

لونا: لا.

نظر في عينيها طويلاً.

ويليام: هل تعرفين من هم؟

لونا: لا.

كانت كذبتها الأولى في حياتها.

□

في مكتب المفوض

المفوض ماركو روسّي: هل رأيتِ وجه أحد؟

لونا: كانوا ملثمين.

المفوض: صوت؟ اسم؟

لونا: لا أذكر.

كانت تذكر كل شيء.

لكنها اختارت أن تتذكّر أقل.

الفصل الحادي عشر

الفرار

في نابولي، بدأت المداهمات.

قُبض على كارلو.

وصودر جزء من الشحنة البحرية.

وظهر اسم "ليو مولر" رسميًا في التحقيق.

لكن عندما اقتحمت الشرطة المستودع، كان فارغًا.

ليو كان قد غادر قبل ساعة واحدة فقط.

في غرفة مكتبه، لم يجدوا سوى درج مكسور... وسلسلة فضية سقطت على الأرض، قبل أن يعود أحدهم فيأخذهاً معه دون أن يلاحظ أحد.

الفصل الثاني عشر

صمت غير مريح

مرّت أيام.

لونا عادت إلى جامعتها.

حياتها بدت طبيعية ظاهريًا.

لكنها صارت تتوقف أحيانًا في منتصف الطريق، كأنها تشعر بنظرة تلاحقها.

وفي زقاقٍ بعيد، كان رجل يقف تحت الظل يراقبها.

لم يكن يقترب.

لم يكن يتحدث.

كان فقط يتأكد أن أحدًا لا يقترب أكثر مما ينبغي.

الفصل الثالث عشر

بدأت روما تتكلم

روما – بعد أسبوعين من عودة لونا.

لم تعد القضية خبرًا عابرًا.

اسم "ليو مولر" أصبح يتردّد في نشرات المساء، مقرونًا بكلمات: تهريب، ابتزاز، سطو مسلح.

في مكتب المفوض ماركو روسّي، كانت خريطة نابولي معلّقة على الحائط، تتناثر فوقها إشارات حمراء.

المفوض ماركو: اعترف كارلو بشبكة التخزين، لكنه يرفض ذكر مكان ليو.

المدعي العام: لماذا؟

المفوض: يبدو أن الولاء عندهم لا يُشترى بسهولة.

في تلك اللحظة، دخل ويليام والكر.

كان يمشي بعصاه، لكن خطواته لم تفقد صلابتها.

ويليام: أريد نتيجة، لا تقارير.

المفوض: نحن نقترب.

ويليام: اقتربوا أسرع.

الفصل الرابع عشر

الظلّ الذي لا يُرى

في أحد شوارع الجامعة، كانت لونا تسير حاملة كتبها.

أوقفها شابٌ بملابس رياضية، بابتسامة متعجرفة.

الشاب: أليست هذه الآنسة التي اختطفتها المافيا؟

لونا: (ببرود) نعم، وأنا أيضًا التي ستصبح قاضية يومًا ما. هل من شيء آخر؟

الشاب: فقط أردت أن أعرف... هل كان الخاطف وسيمًا كما في الأفلام؟

لم تُجب.

الشاب: برأيي أن جمالك سبب إختطافك يا فاتنة

نظرت لونا نظرة اشمئزاز وواصلت سيرها بخطوات متواصلة ورأس شامخ..

لكن قبل أن يستطرد، ظهرت سيارة سوداء ببطء عند زاوية الشارع.

الشاب شعر بقبضةٍ قوية على كتفه من الخلف.

صوتٌ منخفض، هادئ، لكنه مخيف:

ليو: اعتذر.

الشاب: من أنت؟

ليو: شخص لا يحبّ التكرار.

ارتبك الشاب.

الشاب: آسف.

ليو: هذه آخر مرة أراك تستعرض تفاهتك هنا!

ودفعه قليلًا بعيدًا.

عندما التفتت لونا، لم تجد أحدًا.

كانت السيارة قد اختفت.

لكنها شعرت بشيءٍ ما…

إحساسٍ بأنها ليست وحدها.

الفصل الخامس عشر

الاسم المزيف

في غرفة صغيرة بأحد الأحياء القديمة في نابولي، جلس ليو أمام خزانةٍ حديدية قديمة.

كانت تخصّ جاكوب مورو، الرجل الذي ربّاه.

فتحها بعد سنوات من الإهمال.ولأول مرة يفتحها وهو يرتجف…

تحرك قفل الخزانة و إذ بها مملوءة

بملفات.

صور أطفال.

تواريخ.

خرائط اجرام

وورقة تحمل قائمة بأسماءٍ حقيقية.

توقّف عند اسم:

“ليو مارتينيز – 4 سنوات – اختُطف من ضاحية باري.”

ظلّ ينظر إلى الاسم طويلًا.

ليو: (يهمس لنفسه) مارتينيز...

لم يكن يتيمًا.

لم يكن "مولر".

كان طفلًا قد سُرق.

جلس على الأرض، ظهره إلى الحائط، والملف بين يديه.

للمرة الأولى، لم يشعر بالغضب...

بل بالفراغ.الاحباط وانكسار واضح.

الفصل السادس عشر

اختبار الثقة

بعد شهر.

كانت لونا في طريقها إلى مكتبة صغيرة قرب ساحة نافونا.

فجأة، توقفت سيارة قربها.

فُتح الباب الخلفي قليلًا.

صوتٌ مألوف:

ليو: اركبي.

تجمّدت للحظة.

لونا: هذا ليس ذكيًا.

ليو: ولا بقاؤك وحدك في هذا الحيّ مساءً.

ترددت... ثم ركبت.

داخل السيارة، ساد صمت ثقيل.

لونا: كنت أظن أنك هربت.

ليو: أفعل أحيانًا.

لونا: ولماذا عدت؟

ليو: لم أعد.

نظرت إليه.

لونا: لماذا تراقبني؟

ليو: لا أفعل.

لونا: تفعل.

توقّف عند إشارة حمراء.

نظر أمامه لا إليها.

ليو: لأن بعض أخطائي لا أريد أن تتكرر.

لونا: أنا لست خطأً.

التفت إليها ببطء.

ليو: هذا ما أخشاه.

ساد صمتٌ أطول من السابق.

□

□الفصل السابع عشر

الاعتراف

توقفت السيارة قرب طريق ريفي قصير.

ليو: انزلي هنا.

لونا: لماذا؟

ليو: لأن اقترابك مني سيؤذيك.

لم تتحرك.

لونا: قل لي الحقيقة مرة واحدة.

ليو: أي حقيقة؟

لونا: حقيقتك التي تدفنها بداخلك ليو

ظلّ صامتًا.

ثم قال:

ليو: هز برأسه وعينينه يملأها دمع لا ينزل ولا يختفي

ليو: أنا لست كما تظنيني (وهو يخفض رأسه ومكسور)

لونا: وهل ستبقى صامتا؟

ليو: لست صامتاً تجاهلاً، لكني في مرحلة أحاول فيها استيعاب ما لا يُحكى. يا لونا، فصمتي الآن أهون عليي من الكلام

لونا: استيعاب ماذا؟ قُل ما عندك بوضوحٍ ليو

ابتسم ابتسامة قصيرة، متعبة.

ليو: أنتِ دائمًا تتحدثين كأن الأمور بسيطة.

لونا: لأنك انت من تعقّدها.

خرجت من السيارة.

وقبل أن تغلق الباب، قالت:

لونا: إن أردت أن تهرب من ماضيك… فاعرفه أولًا.

ثم مضت.

الفصل التاسع عشر

بين نارٍ تُشعلها الأسرار… وظلٍ يعود من بعيد

في مساءٍ بارد، كان بيت عائلة والكر مضاءً أكثر من المعتاد.

الحديقة الخلفية امتلأت بأضواء صغيرة معلّقة بين الأشجار، والطاولة الكبيرة في الوسط مغطاة بقماش أبيض مزخرف.

اليوم عيد ميلاد والدة لونا.

كانت الضحكات تتصاعد من الداخل، واختها الصغيرة تلاحق ابن عمّها حول الطاولة، بينما أخوها يبالغ في تزيين الكعكة.

الأخ (ضاحكًا): لو سقطت هذه الشمعة، أُعلن نفسي بريئًا رسميًا!

الأخت: أنت بريء فقط في القاموس، أما في الواقع… فأنت كارثة متحركة.

ضحك الجميع.

في الشرفة العلوية، كانت لونا واقفة بهدوء، ترتدي فستانًا أزرق داكنًا، وشعرها الأشقر ينساب على كتفيها، وعيناها الخضراوان تلمعان تحت أضواء الحديقة.

لم تكن تضحك مثلهم.

كانت تفكر.

على بعد أمتار... خارج سور المنزل، داخل سيارة سوداء متوقفة في الظل...

كان ليو يراقب.

لم يكن ينوي الاقتراب.

فقط... أن يطمئن.

أمسك المقود بقوة عندما رآها تبتسم لوالدها.

همس لنفسه:

ليو: يكفي... فقط أراها بخير.

▯

بعد انتهاء الحفل، جلس الجميع في الصالة.

ويليام والكر جلس في مقعده المعتاد، عصاه بجانبه، ونظراته حادة رغم ابتسامته.

لونا اقتربت منه وجلست قربه.

لونا: أبي... هل تم القبض على بقية أفراد العصابة الذين هربوا؟

ويليام: (ينظر إليها بتمعّن) ولماذا يهمك الأمر؟

لونا: مجرد فضول قانوني. أنا أدرس ملفات مشابهة، وأحب أن أعرف كيف تُدار الأمور.

ويليام: اثنان منهم هربا إلى الجنوب... واحد نعتقد أنه عاد إلى نابولي.

لونا: وهل... تم تحديد مكانه؟

ويليام: (ببرود) قريبًا.

سكتت لحظة.

لونا: وأما... ليو؟

ويليام: اختفى. الهاربون لا يدومون طويلًا.

نظرت لونا إلى الأرض.

لونا: أحيانًا لا يهرب الإنسان لأنه مذنب... بل لأنه لا يجد مكانًا يقف فيه.

ويليام: (بصوت منخفض) لا تدافعي عن ذئبٍ يا لونا.

لونا: لم أدافع... فقط أحاول أن أفهم.

راقبها طويلًا... لكنه لم يعلّق.

□

في اليوم التالي، عند زاوية الجامعة...

كانت لونا تمشي وحدها.

توقفت فجأة.

شعرت بنظرةٍ خلفها.

ابتسمت دون أن تلتفت.

لونا: إن كنتَ ستراقبني... على الأقل تعلّم كيف لا تُصدر صوتًا عند المشي.

صمت.

ثم صوت خطوات بطيئة.

ليو: لم أكن أراقب.

استدارت ببطء.

عيناه تحملان تعبًا جديدًا… وشيئًا آخر لم تفهمه.

لونا: تعال.

ليو: إلى أين؟

لونا: سيارتي. الآن.

ليو: هذا ليس—

لونا: (بحزم) قلت الآن.

بعد دقائق، توقفت السيارة أمام مستودع قديم.

المكان ذاته الذي بدأت فيه القصة.

نزلت أولًا.

دخلت بخطوات ثابتة.

ليو تبعها بصمت.

لونا: أريد الحقيقة. كل شيء. بلا أنصاف.

ليو: لا يوجد شيء.

لونا: توقف عن معاملتي كطفلة!

صدى صوتها ارتطم بالجدران الفارغة.

لونا: هل كنت حقًا يتيمًا؟

ليو: لا.

لونا: إذًا؟

سكت طويلًا... ثم جلس على صندوق خشبي.

ليو: اختُطفت. وأنا في الرابعة.

تجمّدت.

ليو: جاكوب... لم يكن أبي. كان الرجل الذي سرقني. أقنعني أن عائلتي رمتني... وأنه أنقذني. ربّاني ليجعل مني... ما كنتِ ترينه.

لونا: وهل كنت الوحيد؟

ليو: لا.

رفع عينيه إليها.

ليو: هناك أطفال آخرون. ملفات... أسماء. صندوق وجدته قبل أشهر. فهمت الحقيقة متأخرًا.

اقتربت منه خطوة.

لونا: ولماذا لم تتخبرني.

ليو: لأنني لم أكن أملك شيئًا أقدّمه لكِ سوى الفوضى.

صمت.

ثم قالت بهدوء:

الفوضى جزء من الطبيعة البشرية، ولا أحد يطالبك بالكمال دائماً. لو أخبرتني، لكانت الفوضى أقل ثقلاً عليك، فالأحمال تصبح أخف حين نتقاسم الحقيقة

لكن لما لا تواجه العدالة

ليو: مستحيل.

لونا: لن أشهد ضدك.

ليو: أريد أن أجد والديّ أولًا.

لونا: وماذا لو كانا—

ليو: (بصوت منكسر لأول مرة) ماتا؟

كانت تلك اللحظة...

سقطت قسوته.

عينيه لمعتا... لا غضبًا، بل ألمًا.

اقتربت أكثر.

وضعت يدها على كتفه.

ثم... بلا تفكير... احتضنته.

كان عناقًا صادقًا... لا رغبة فيه، بل احتواء.

شعرت بتوتر جسده أولًا... ثم ارتخائه تدريجيًا.

ليو: (بهمس قرب شعرها) لا تفعلي هذا...

لونا: لماذا؟

ليو: لأنني سأعتاد عليه.

رفعت وجهها نحوه.

لونا: اعتد.

سكت.

وضمّها للحظة أطول.

ثم قال "أنتِ لا تعرفين ماذا يفعل صمتكِ وعناقكِ برجلٍ كان يظن أن الفوضى هي قدره الوحيد."

وابتسما وهو ينظران لبعض

□

5

بعد أسبوع...

كانت تقف أمام مزرعة قديمة معزولة خارج روما.

لونا: أبي أهداها لي منذ سنوات. لا أحد يأتي هنا.

أعطته المفتاح.

ليو: لا أستطيع قبول—

لونا: تستطيع.

فتحت الباب.

غبار خفيف... ضوء يتسلل من النوافذ... سكون مطلق.

لونا: ستبقى هنا. سأحضر لك ما تحتاجه. وسنبحث معًا.

ليو: لماذا تفعلين هذا؟

لونا: لأنك لست مجرمًا كما يظنون... ولأنني... لا أستطيع أن أتركك وحدك.

لم تعترف.

لكنه فهم.

□

6

مرت أيام.

كانت تأتي بحاسوبها المحمول.

يجلسان أمام الطاولة الخشبية.

لونا: هذا سجل قديم لحالات اختطاف في باري قبل عشرين عامًا.

ليو: اسمي... ليو مارتينيز. هذا ما أتذكره فقط.

لونا: وماذا عن لقبك؟

ليو: لا أعلم.

لحظة صمت.

ثم فجأة... سقط الحاسوب أرضًا عندما حاول ليو إصلاحه.

لونا: رائع! القاتل الخطير لا يعرف حتى كيف يحمل جهازًا!

ليو: أنا لم أقتل حاسوبًا من قبل.

لونا: اليوم فعلت.

ضحكت لأول مرة أمامه دون خوف.

ابتسم.

الفصل التاسع عشر (تابع1)

حين يصبح الاحتواء وطنًا

لم يكن الليل في المزرعة يشبه ليل المدينة.

هنا... الصمت ليس فراغًا، بل حضورٌ كثيف.

صوت الريح وهي تمرّ بين الأشجار كان يشبه تنفّسًا عميقًا للأرض، وكأن الطبيعة نفسها تحرس هذا السرّ الصغير بينهما.

جلس ليو على الدرج الخشبي أمام الباب، مرفقيه على ركبتيه، ينظر إلى الفراغ.

بين يديه سلسلة فضية قديمة، كان يمررها بين أصابعه كأنها الشيء الوحيد الذي يربطه بطفولته.

خرجت لونا حاملة كوبين من القهوة.

اقتربت بهدوء وجلست بجانبه دون أن تقاطعه.

لونا:

"القهوة مرة قليلًا… لكن أضفت لها سكر أكثر من العادة. قلت ربما الليلة تحتاج شيء يخفف حدّتها."

ناولته الكوب.

لم ينظر إليها فورًا.

ليو (بصوت منخفض):

"أنتِ لا تخافين مني؟"

ابتسمت ابتسامة صغيرة، دافئة.

لونا:

“أخاف عليك... لا منك.”

رفع عينيه إليها ببطء.

كان في نظرته سؤال أعمق من الكلمات.

ليو:

“أنا شخص مطارد... متورّط... اسمي في ملفات الشرطة. ومع ذلك تجلسين هنا وكأننا نتحدث عن الطقس.”

وضعت يدها فوق يده التي تمسك السلسلة.

لم تسحبها.

لم تتردد.

لونا:

“أنا لا أرى اسمك في الملفات... أرى طفلاً خُطف منه اسمه. أرى شابًا تربى على كذبة. أرى إنسانًا يبحث عن جذوره قبل أن يبحث عن خلاصه.

وهذا... ليس شيئًا يُخاف منه. هذا شيء يُسانَد.”

ارتعش شيء خفي في صدره.

لم يعتد أحد أن يتحدث عنه هكذا.

ليو:

“لو كنتِ تعلمين كم تلطخت يداي—”

قاطعته برفق.

لونا:

"لا أريد أن أسمع عن الدم الآن. أريد أن أسمع عن الطفل. عن أول ذكرى حقيقية تتذكرها."

تنفّس بعمق.

ليو:

"رائحة خبز... وصوت امرأة تغني. لا أتذكر وجهها. فقط صوتها."

أغمضت لونا عينيها لحظة، كأنها تحاول أن تبني له تلك الصورة من جديد.

لونا:

"سنجدها. أو على الأقل... سنجد من كان يعرفها. لن أترك هذا الخيط يضيع."

نظر إليها بدهشة صادقة.

ليو:

"لماذا تفعلين كل هذا من أجلي؟"

ترددت ثانية واحدة... ثم قالت بصوت حنون جدًا:

لونا:

“لأنك عندما أخبرتني أنك خُطفت... رأيت في عينيك خوف طفل، لا قسوة رجل.

وأنا... لا أستطيع أن أترك طفلًا وحيدًا.”

ساد صمت طويل... صمتٌ لم يكن فارغاً، بل كان يضجّ بصوت أنفاسهما المتسارعة. لونا كانت لا تزال قريبة، عيناها تشعان بذلك الحنان الذي اخترق حصونه.

رفع ليو يده ببطء، بدت وكأنها تزن أطناناً من التردد، حتى استقرت أصابعه برقة مفرطة على وجنتها. لم تكن لمسة عابرة، بل كانت محاولة منه للتأكد أن هذا الأمان حقيقي وليس سراباً. انحنى قليلاً، حتى جبهته لامست جبهتها، وأغمض عينيه بقوة وكأنه يستنشق عبير طمأنينتها.

همس بصوت مبحوح، دافئ، يحمل حرارة الصدق ولا يحمل قيد الاعتراف:

ليو:

"إذًا، أنتِ لا ترين القناع الذي يرتعِد منه الجميع؟ تَرين الحقيقة التي حاولتُ دفنها لسنوات..."

سحب نفساً عميقاً، واقتربت أنفاسه من أذنها حتى شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، ثم تابع بهمسٍ أكثر عمقاً وحرارة:

ليو:

"من الخطير جداً أن تمنحي طفلاً تائهاً وطناً فجأة يا لونا.. لأنني الآن، لا أعرف كيف سأقوى على الخروج من هذا الأمان والعودة لبرودة العالم مرة أخرى. لقد جعلتِ الاستمرار وحدي.. مستحيلاً."

في تلك اللحظة، شدّد ذراعيه حولها بقوة أكبر، دافناً وجهه في عنقها، وكأنه يختبئ فيها من ماضيه، ومن خوفه، ومن نفسه. كانت غمرة "حارّة" وطويلة، صامتة تماماً، لكنها تقول كل شيء دون أن ينطق بكلمة "أحبكِ".

بعد أيام

تحولت المزرعة إلى مساحة عمل صغيرة.

خرائط على الطاولة.

ملفات مطبوعة.

حاسوب مفتوح.

كانت لونا تجلس قريبة منه، تكتب بسرعة، ثم تتوقف لتشرح له كل خطوة.

لونا:

"انظر هنا... قبل عشرين سنة، سُجلت ثلاث حالات اختفاء أطفال في ضواحي باري خلال شهرين فقط.

أحدهم اسمه ليو.

والأغرب... أن الملف أُغلق دون نتائج."

ليو (ينحني فوق الشاشة):

"أرني الصورة."

كبّرت الصورة القديمة.

طفل بعينين خضراوين... وشعر أغمق قليلًا مما هو عليه الآن.

توقف تنفسه لثوانٍ.

ليو:

"هذا... أنا."

لم يكن تأكيدًا عقليًا فقط.

كان إحساسًا غريزيًا.

كأن جسده تعرّف على نفسه قبل أن يعترف عقله.

لونا نظرت إليه، وقلبها انقبض.

مدّت يدها إلى خده دون وعي.

لونا (بهمس):

"وجدناك يا ليو… على الأقل وجدنا البداية."

انحنى رأسه قليلًا، وكأن تلك الجملة كسرت سدًا داخليًا.

ليو:

"لو كانا ماتا؟ لو بحثتِ كل هذا الوقت بلا جدوى؟"

أمسكت وجهه بين كفيها بلطف.

لونا:

"إذن سنعرف الحقيقة. والحقيقة… حتى لو كانت مؤلمة… أرحم من الظل."

عيناه لمعتا.

اقترب وجهها منه دون قصد، لكنها تداركت نفسها.

تراجعت خطوة.

ليو لاحظ.

لكنه لم يعلّق.

□

في إحدى الأمسيات، حاول ليو إصلاح باب المخزن الخلفي.

كان مقتنعًا أنه يعرف كيف يفعل ذلك.

بعد عشر دقائق… سقط الباب بالكامل.

لونا وضعت يدها على فمها تكتم ضحكة.

لونا:

"القاضي يحتاج إلى نجار… لا إلى مجرم سابق يحاول التوبة بالأدوات."

ليو (ينظر إلى الباب المكسور):

"كنت أستطيع فتح خزائن مصفحة… لكن هذا الباب انتصر علي."

ضحكت بصوت واضح هذه المرة.

صوتها ملأ المكان دفئًا.

ليو ظل ينظر إليها... لا إلى الباب.

شيء في داخله كان يقول:

لو ضحكت هكذا كل يوم... ربما أستطيع أن أبدأ من جديد.

□

إعلان بلا اعتراف

في ليلة أخرى، بعد ساعات من البحث، أغلقت لونا الحاسوب.

تعبت عيناها.

ليو:

“توقفي. أنتِ منهكة.”

لونا:

“وأنت؟”

ليو:

“أنا اعتدت الإرهاق. أنتِ لا يجب أن تعتاديه.”

نظرت إليه طويلًا.

لونا:

“لو تعبت... لن ألوم أحدًا غير نفسي. أنا اخترت أن أكون هنا.
اخترت أن أكون معك في هذه الرحلة.”

كلمة “معك” خرجت أبطأ من غيرها.

هو شعر بها.

لكن لا أحد منهما قال ما يفهمه الاثنان.

وفي مكانٍ آخر...
كان ويليام والكر يراقب بصمت.

تقارير غير مكتملة.
مكالمات مشبوهة.
وابنة... بدأ قلبها يبتعد عن الحسابات الباردة.

كان الصمت الذي يسبق العاصفة يتكوّن ببطء.

الفصل التاسع عشر (تابع2)

حين يسبق القلب الاعتراف

مرت الأشهر ببطءٍ جميل.

لم يكن بينهما وعدٌ صريح.

ولا كلمة “أحبك”.

ولا حتى لمسٌ طويل يتجاوز حدود الحذر.

لكن المسافات… صارت أقصر.

□

1

يوم التخرج.

قاعة المحكمة القديمة في روما كانت ممتلئة.

الأسماء تُنادى واحدًا تلو الآخر.

حين نُودي اسمها:

“لونا والكر.”

وقفت.

خطواتها ثابتة.

رأسها مرفوع.

عيناها الخضراوان تشعّان ثقةً وشيئًا آخر... حنينًا إلى مكانٍ بعيد عن القاعة.

في الصفوف الخلفية، كانت عائلتها تصفق بفخر.

لكن خارج المبنى... في شارع جانبي بعيد عن الأنظار...

كان ليو يقف.

لم يدخل.

لم يجرؤ.

كان يرتدي قميصًا داكنًا بسيطًا، وشعره مصفف بعناية أكثر من المعتاد.

همس لنفسه:

ليو:

“هي تنتمي إلى هناك... لا إلى الظلال.”

بعد الحفل، كانت العائلة تحتفل في منزلهم.

ضحك، موسيقى خفيفة، كلمات تهنئة.

الأخ (مازحًا):

"من الآن فصاعدًا، سأفكر مرتين قبل أن أسرق قطعة كعك."

لونا:

"لا تقلق، أول قضية لي ستكون ضدك."

ضحكوا.

لكن حين انسحبت بهدوء إلى غرفتها لتبدّل ملابسها… كانت تبحث عن شيء واحد فقط.

هاتفها.

اتصلت به.

رنّ مرتين فقط.

ليو:

"مبروك… سيدتي القاضية."

صوته كان دافئًا، منخفضًا، مختلفًا.

لونا (بابتسامة يسمعها في نبرتها):

"أين أنت؟"

ليو:

“قريب… وبعيد بما يكفي.”

لونا:

“لا أريدك بعيدًا الليلة.”

صمت قصير.

ثم:

ليو:

“أين؟”

□

2

وصلت إلى المزرعة بعد ساعة.

كانت ترتدي فستانًا أبيض بسيطًا هذه المرة، بلا رسميّة.

عندما دخلت، وجدته واقفًا قرب النافذة.

التفت ببطء.

ظلّ ينظر إليها لثوانٍ أطول من اللازم.

ليو:

“لم أركِ هكذا من قبل.”

لونا (بابتسامة خفيفة):

“كيف؟”

ليو:

“كأنكِ… نجوتِ من شيء كبير.”

اقتربت منه.

لونا:

“نجوت؟”

ليو:

“من أن تصبح حياتك مجرد قوانين.”

وقفت أمامه مباشرة.

المسافة بينهما… أنفاس.

لونا:

“وأنت؟ هل نجوت من شيء؟”

أخرج من جيبه السلسلة الفضية.

كانت بسيطة.

عليها حرف L وحرف آخر K محفور بخفة.

ليو:

“هذه كانت معي منذ أن أتذكر. لا أعرف من أعطاني إياها.

احتفظت بها كأنها الشيء الوحيد الذي يثبت أنني لم أكن وهمًا.”

نظر إلى عينيها مباشرة.

ليو:

“أريدكِ أن تحتفظي بها.”

تجمدت.

لونا:

“ليو… هذه تخصك.”

ليو:

“وأنتِ تخصينني أكثر من أي شيء أملكه.”

توقف فجأة… كأنه قال أكثر مما خطط.

ابتلعت ريقها.

مدّت يدها ببطء.

عندما وضع السلسلة في كفها... لامست أصابعه أصابعها.

شحنة دافئة مرت بينهما.

ليو (بصوت أعمق):

"لا تنزعيها أبدًا."

رفعت نظرها إليه.

لونا:

"حتى لو غضبت منك؟"

ليو:

"حتى لو كرهتِني."

لونا:

"لن أكرهك."

قالتها بلا تردد.

صمت.

أنفاس.

قلوب تتسارع.

□

3

القبلة التي تأخرت شهورًا

اقترب خطوة.

ثم أخرى.

كان واضحًا أنه يحارب شيئًا داخله.

ليو:

“كنت أقول لنفسي… إنها مجرد فتاة قوية، تريد إنقاذي من نفسي.

لكن الحقيقة…”

توقف.

يده ارتفعت ببطء، لامست خصلة من شعرها الأشقر، أبعدها عن وجهها.

ليو (بهمس يكاد ينكسر):

“الحقيقة أنني منذ اليوم الذي رأيتك فيه في ذلك المستودع… لم أستطع إخراجك من رأسي.

كنتِ تقفين أمامي بلا خوف، تنظرين إليّ كأنني إنسان… لا سلاحًا.”

عيناها امتلأتا بدموع خفيفة.

لونا (بصوت مرتجف):

“وأنا منذ اليوم الذي تركتني فيه حرة… عرفت أن داخلك شيء لا يشبه الظلام.”

اقترب أكثر.

جبينه لامس جبينها.

ليو:

“أنا مجنون بكِ… بطريقة تخيفني.”

لونا أغمضت عينيها.

لونا:

“لا تخف. أنا هنا.”

لم يعد هناك مسافة.

قبّلها.

ببطء أولًا… ترددًا… ثم يقينًا.

لم تكن قبلة اندفاع.

كانت اعترافًا مؤجلًا منذ شهور.

شعرت لونا أن الأرض تلاشت تحتها، وأن كل الضوضاء التي كانت في رأسها صمتت فجأة.

يده كانت على خصرها، ثابتة لكنها حذرة.

وحين ابتعد قليلًا… ظل جبينه ملاصقًا لجبينها.

ليو (بصوت مبحوح):

“لا تتركيني.”

أحاطت عنقه بذراعيها.

لونا:

“لن أتركك… حتى لو اضطررت أن أواجه العالم كله.”

لم يقولا “أحبك”.

لكن الكلمة كانت واضحة في نظراتهما.

□

4

بداية الخطر الصامت

في الليلة نفسها...

في منزل والكر...

كان ويليام جالسًا في مكتبه.

أمامه تقرير جديد.

اسمٌ مكتوب بخط واضح:

رافاييل مولر

توقف.

همس لنفسه:

ويليام:
"إذن... لم تختفِ يا فتى."

أغلق الملف ببطء.

وعيناه لمعتا بشيء لا يشبه الرضا.

الفصل التاسع عشر (تابع3)

بين المطرقة والقلب

1

اليوم الأول… خلف المنصة

صباح رمادي.

المحكمة تبدو أكبر مما كانت عليه يوم تخرجها.
القاعة هادئة، المقاعد الخشبية مرتبة، ورائحة الورق القديم تعبق في المكان.

وقفت لونا خلف باب مكتبها الجديد.

يدها على المقبض.

شعرت بأنفاسها تثقل.

ليست طالبة بعد الآن.
ليست متفرجة.

اليوم... هي القاضية.

دخلت.

الرداء الأسود كان أثقل مما تخيلت.

ليس وزن القماش... بل وزن السلطة.

جلست خلف المكتب، لمست المطرقة الخشبية بأصابع مرتجفة قليلًا.

همست لنفسها:

لونا:

“العدالة لا تعرف القلب... تذكّري هذا.”

لكن قلبها... كان في مزرعة معزولة خارج المدينة.

2

العلاقة التي تعيش في الظل

في المساء، كانت تقود سيارتها بعيدًا عن الأحياء المزدحمة.

الطريق الترابي المؤدي إلى المزرعة صار مألوفًا.

عندما توقفت، خرج ليو فورًا، كأنه كان ينتظر صوت محركها.

نظر إليها من بعيد… ثم اقترب.

ليو:

“كنت أخشى أن يتأخر يومكِ الأول.”

لونا (تبتسم بتعب واضح):

“أطول مما توقعت. كل كلمة تُقال في القاعة… أشعر أنني مسؤولة عنها.”

اقترب منها أكثر.

لاحظ الشحوب الخفيف في وجهها.

ليو:

“أنتِ قوية.”

لونا (تنظر إليه بصدق):

“لا… أنا فقط أُجيد التظاهر بالقوة.”

جلسا على الدرج الخشبي.

وضعت رأسها على كتفه لأول مرة دون تردد.

كانت لحظة هادئة جدًا.

ليو:

“هل ندمتِ؟”

لونا:

“على ماذا؟”

ليو:

“على اختياري.”

رفعت رأسها فورًا.

عيناها الخضراوان اشتعلتا بنوع من الحنان الصارم.

لونا:

“ليو... اسمعني جيدًا.

أنا لا أزورك هنا بدافع الشفقة.

ولا بدافع التمرد على والدي.

ولا لأنني أحب التحدي.

أنا هنا لأنني حين أكون معك... أشعر أنني أعيش بصدق.

وفي المحكمة... أعيش بالقانون.

الفرق كبير.”

سكت لحظة، ثم قال بهدوء:

ليو:

“أخاف أن يبتلعكِ عالمي.”

ابتسمت.

لونا:

“وأنا أخاف أن يبتلعك عالمي أنت.”

□

3

السلسلة... والشرخ الأول

مرت أشهر.

كانت تخفي السلسلة تحت ملابسها أثناء العمل.

لكن في البيت... لم تكن حذرة كفاية.

في إحدى الليالي، نامت لونا في غرفة أختها.

كانتا منذ الطفولة تتشاركان الأسرار تحت بطانية واحدة.

الضوء خافت.

الأخت لاحظت السلسلة.

الأخت:

“منذ متى ترتدين هذه؟”

لونا (تتوتر قليلًا):

“هدية.”

الأخت:

“من؟”

صمت.

ثم…

لونا:

“تذكرين الرجل الذي قبضوا عليه في قضية الميناء؟”

الأخت جلست فجأة.

الأخت:

“لا تقولي…”

لونا:

“لم يُقبض عليه.”

الأخت:

“لونا… ماذا فعلتِ؟”

تنهدت لونا بعمق.

ثم بدأت تحكي.

حكت عن اختطافه.

عن جاكوب.

عن الأطفال الآخرين.

عن المزرعة.

عن القبلة الأولى.

صوتها كان مزيجًا بين شجاعة وارتباك.

لونا:

“أنا أحبه.”

قالتها أخيرًا.

الأخت نظرت إليها بذهول.

الأخت:

“أنتِ قاضية! وهو…”

لونا:

“هو إنسان.”

الأخت:

“وأبي؟”

لونا أغمضت عينيها.

لونا:

“أبي لن يفهم.”

4

خلف الباب

لم تكونا وحدهما.

خارج الغرفة…

كان ويليام واقفًا.

في البداية، سمع همسات فقط.

ثم كلمات واضحة.

“المزرعة.”

“أحبه.”

“لم يُقبض عليه.”

تجمّد.

يده تشبثت بالعكاز.

قلبه بدأ يخفق بعنف غير طبيعي.

همس لنفسه:

ويليام:

“لا... لا يمكن.”

شعر بدوار مفاجئ.

الغرفة بدأت تدور حوله.

حاول أن يتقدم خطوة... لكن الألم ضرب صدره كقبضة حديدية.

سقط.

صوت ارتطام جسده بالأرض قطع حديث الفتاتين.

لونا فتحت الباب بسرعة.

صرخت:

لونا:

"أبي!"

كان وجهه شاحبًا، عرق بارد يغطي جبينه.

الأم بدأت تبكي.

الأخ اتصل بالإسعاف.

لونا ركعت بجانبه، تمسك يده.

لونا (بصوت مرتجف):

"أبي… أنا هنا. أرجوك لا تتركني."

فتح عينيه بصعوبة.

نظر إليها… نظرة طويلة مليئة بخيبة وصدمة.

ويليام (بهمس متقطع):

"خنتِ… ثقتي."

الكلمة طعنتها أكثر من أي شيء.

وصلت سيارة الإسعاف.

أخذوه.

□

5

المستشفى… والصمت الثقيل

في غرفة الانتظار، كانت لونا جالسة وحدها.

يدها ترتجف.

السلسلة في رقبتها بدت فجأة أثقل.

هاتفها اهتز.

ليو.

ترددت.

ثم ردّت.

ليو:

“صوتكِ متعب… ماذا حدث؟”

حاولت أن تبدو قوية.

لكن صوتها انكسر.

لونا:

“أبي… سمع كل شيء.”

صمت طويل من جهته.

ليو:

“هل هو بخير؟”

لونا:

“أزمة قلبية.”

سمعته يتنفس ببطء.

ليو:

“لونا... إن كنتِ تريدين إنهاء—”

قاطعتْه بسرعة.

لونا:

“لا تقلها. لا تجرؤ حتى على التفكير بها.

أنا لن أتركك لأن الظروف صعبة.

لكن... يبدو أن الحرب بدأت.”

أغمض عينيه.

ليو:

“أنا السبب.”

لونا:

“لا.

السبب هو الخوف.

وأنا سأتعامل معه.

الفصل التاسع عشر(تابع4): الابتسامة التي تخفي السكين

1. الصمت الذي يسبق العاصفة

غادر ويليام والكر المستشفى بعد أسبوع من الصراع مع نوبته القلبية، لكنه لم يخرج بالضعف الذي توقعته لونا. كان هدوؤه مخيفاً، يشبه سكون الغابة قبل هبوب الإعصار؛ هدوء رجلٍ حسم أمره ووقع قراره النهائي بالدم.

في صباح خريفي باهت، دلفت لونا إلى غرفته. كان يقبع قرب النافذة، يراقب الأفق وفنجان القهوة يرسل بخاره بين يديه المتصلبتين.

سألته بنبرة محملة بالرجاء: "كيف تشعر اليوم يا أبي؟"

أجابها وصوته يأتي من بعيد: "أفضل.. القلب مثقل بالجراح، لكنه لا يزال يتقن فن النبض."

جلست أمامه، والذنب ينهش ملامحها: "أبي.. أقسم أنني لم أرد إيذاءك قط."

نظر إليها ويليام طويلاً، بنظرة اخترقت روحها: "أحياناً يا لونا، لا تأتي الطعنة من الأعداء.. بل من أولئك الذين نحبهم، لأننا نترك ظهورنا مكشوفة لهم، ولا نتوقع منهم الغدر."

ارتجف صوتها وهي تدافع عن قضيتها الخاسرة: "هو ليس عدوي."

رد ببرود جليدي: "لكنه عدو القانون."

"ليس كما تظن.." قالتها بضعف، ليصعقها بسؤاله الأخير: "وأنتِ قاضية.. هل ستستطيعين حقاً الفصل بين نبضات قلبك وبين أوراق ملفاته؟"

ساد الصمت، فالسؤال كان هو الهاوية التي تخشى لونا النظر إليها.

2. تدبير في العتمة

مع حلول المساء، تحول المنزل إلى ثكنة من الأسرار. أمر ويليام عائلته بإخلاء الردهة بلهجة حازمة لا تقبل النقاش. كان بانتظاره المفوض "ماركو روسّي".

جلس الرجلان وجهاً لوجه، يتبادلان لغة المصالح والقانون.

همس ويليام: "أريد إغلاق هذا الملف نهائياً."

استفهم ماركو: "تقصد رافاييل مولر؟"

أومأ ويليام ببطء: "أعرف مخبأه."

رفع المفوض حاجبه بدهشة: "هل أنت متأكد؟"

"أكثر من أي وقت مضى."

قال ماركو بحزم: "سيتم القبض عليه الليلة."

لكن ويليام استوقفه بابتسامة باهتة لا تصل لعينيه: "لا.. انتظروا حتى أتأكد بنفسي أنه في الداخل."

3. مفاجأة بطعم الرماد

في الطابق العلوي، كانت لونا تقف خلف ستائر الشرفة، تراقب سيارة الشرطة وهي تبتعد. انقبض صدرها بحدسٍ سيء، لكنها طردت الفكرة وهي تهمس: "مستحيل.. أبي لن يفعلها."

أخرجت هاتفها واتصلت بليو. جاء صوته الهادئ كبلسم لجراحها: "أشتاق إليكِ."

ابتسمت رغم الغصة: "وأنا أيضاً.. ليو، هل ينقصك شيء؟ طعام؟ دواء؟"

أجابها: "لا شيء، فقط أخبريني.. هل وجدتِ طرف خيط عن عائلتي؟"

ترددت لحظة، ثم قالت بحماس لم تستطع كبته: "أنا أجهز لك مفاجأة.. خيط جديد، لا أريد استباق الأحداث، لكننا اقتربنا جداً."

ضحك ليو بخفة: "أنتِ أخطر من أي عصابة.. تعيشين دائماً وسط المفاجآت."

لم يدركا في تلك اللحظة أن هذه "المفاجأة" ستكون القفل الذي يغلق باب حياتهما معاً.

4. السقوط والاحتراق

كان الليل ثقيلاً على المزرعة المعزولة. جلس ليو يقلب أوراقاً قديمة تحت ضوء خافت، قبل أن يمزق سكون المكان ضوء كاشف واخترق الصراخ جدران الخشب: "شرطة! لا تتحرك!"

لم يبدِ ليو أي مقاومة؛ كان يدرك أن القدر قد وافاه. أُغلقت الأصفاد حول معصميه بخشونة. وبينما يقتادونه إلى الخارج، رأى ظلاً يتقدم بعكاز.. إنه ويليام والكر.

توقف ويليام عند نافذة سيارة الشرطة، أشعل سيجارته بهدوء مخيف، وانحنى نحو ليو قائلاً بصوت خفيض: "ما كان يجب أن تثق بابنتي.. هي من دلتنا عليك، قالت إن المفاجأة الكبرى ستكون الليلة."

شعر ليو ببرودة الموت تسري في عروقه. ترددت كلمات لونا في أذنيه: "أجهز لك مفاجأة".. تحولت الكلمة إلى خنجر مسموم يمزق قلبه.

همس بانكسار: "لا.. هي لا تفعل ذلك.."

ابتسم ويليام ببرود: "القانون فوق الحب يا فتى."

تحركت السيارة، وبقي ويليام ينظر للمزرعة، ثم التفت لحراسه آمراً: "أحرقوا المكان."

اندلعت النيران، والتهم اللهب الخشب والذكريات، وكأن ويليام يمحو كل أثر لمرور ليو بحياة ابنته.

5. رماد الأحلام

في تلك الأثناء، كانت لونا تقود سيارتها برفقة "بين هاريس" نحو ضواحي "باري"، يلاحقان أملاً جديداً في العثور على عائلة "مارتينيز".

قبل أن تترجل من السيارة، اهتز هاتفها باتصال من شقيقها. كان صوته مرتعشاً: "لونا.. المزرعة احترقت بالكامل.. لم يبقَ منها شيء."

سقط الهاتف من يدها، وتجمدت الدماء في عروقها: "ليو؟!"

"النار التهمت كل شيء.." صرخ شقيقها.

انهارت لونا في مقعدها، والدموع تنهمر كالسيل. أخذ "بين" المقود وانطلق نحو موقع الكارثة.

عندما وصلت، وجدت الدخان الأسود يعانق السماء. ركضت بجنون نحو رجال الإطفاء تصرخ: "كان هناك شخص بالداخل! أخبروني!"

أجابها أحدهم بأسف: "لم نجد أحداً، لا جثث ولا أحياء.. المكان كان خالياً."

تراجعت لونا للخلف، تائهة بين الرعب والشك. هل هرب؟ أم أن الأرض ابتلعته؟ لم تكن تعلم أن والدها قد نسج حوله سياجاً من السرية، وأن حبيبها الآن يقبع خلف قضبان الحديد، مقتنعاً بأنها هي من خانته.

6. جحيم الانتظار

مر أسبوع كأنه دهر. ليو في زنزانته الباردة، لا يرى إلا وجه لونا وهي تقول: "أنا أجهز لك مفاجأة". كان الألم في صدره أشد من قيود السجن، فخيانة القلب لا تُشفى.

وفي الخارج، كانت لونا تجوب الشوارع كالمجنونة، تبحث عن شبح رجل تظن أنه فر من الموت، بينما هو ينتظر محاكمة ستكون هي فيها، ربما، الخصم والحكم.

الفصل العشرون: حين يتحول الحب إلى سؤال

1. سبعة أيام من العدم

لم يكن الوقت في الزنزانة يُقاس بالساعات، بل بالصمت الثقيل الذي ينهش الجدران الرمادية. أسبوع كامل مرّ ورائحة الرطوبة تمتزج بأنفاس ليو المثقلة، نافذة عالية ضيقة لا تسمح إلا لفتات من الضوء الشاحب بالدخول، كأنها تسخر من حريته المسلوبة.

جلس ليو على طرف سريره المعدني البارد، مسنداً ظهره المتعب إلى الحائط، وعيناه غارقتان في فراغ الغرفة الضيقة. لم يكن قيد الحديد هو ما يوجعه، ولا خشونة الفراش، بل ذلك الغياب الذي بدأ يقتات على روحه.

همس لنفسه بنبرة خافتة: "أسبوع.. ولم تأتِ."

في اليوم الأول، كان يترقب صرير الباب مع كل خطوة حارس. في الثالث، اختلق لها الأعذار؛ ربما هي المراقبة أو الخوف. في الخامس، ظنها تعاملات ورقية معقدة. لكن في اليوم السابع، جفت بئر التبريرات في قلبه.

مد يده تلقائياً نحو صدره يبحث عن سلسلته، ليصطدم بجلده العاري. تذكر أنه أهداها قلبه وذكرياته في تلك السلسلة، فأغمض عينيه بقوة، لتهجم عليه الذكريات كأمواج هائجة.

2. طيف لونا والقسوة المولودة

رآها بوضوح خلف جفونه؛ كانت تجلس في المزرعة، خصلات شعرها الأشقر تداعب وجهها وهي غارقة في حاسوبها، وصوتها يتردد في أركان الزنزانة: "لن أتركك وحدك في هذه الرحلة".

"لكنكِ تركتِني.." قالها ليو بمرارة، مسترجعاً دفء كفيها وهى تلمس وجهه، ونظرتها الواثقة حين أخبرته أنها تخاف عليه لا منه.

ضحك بسخرية مكسورة: "كنتِ ممثلة بارعة إذن."

فجأة، انتفض ليو من مكانه، وتغيرت وتيرة نبضه. بدأ يذرع الزنزانة جيئة وذهاباً بخطوات غاضبة. أحس بشيء ما يتصلب في أعماقه، كأن الألم بدأ يتحول إلى نصلٍ حاد.

"كنتُ مخطئاً.." تمتم بصوت صارم، "أظهرتُ جانبي الأبيض ظناً مني أن العالم سيكافئني بالبياض، لكن هذا العالم لا يحترم إلا القسوة، ولا يفهم إلا لغة البطش. إما أن تكون السكين.. أو تكون الضحية."

توقف أمام القضبان الحديدية، وقبض عليها حتى ابيضت مفاصل يده: "كم كنتُ أحمقاً حين صدقت أن قاضية ابنة رجل مثل ويليام والكر ستختار منبوذاً مثلي.. لقد جعلتني أؤمن للحظة أنني أستحق ضوء الشمس، لكن الحقيقة هي أنني خُلقت للظلال، وسأبقى فيها."

عاد وجلس، لكن هذه المرة برأس مرفوع وعينين يملؤهما الحقد: "لماذا لم تأتِ يا لونا؟ حتى لتقولي أنها النهاية؟ الصمت هو أبشع أنواع الخيانة."

3. احتفال فوق الأنقاض

على الضفة الأخرى من المدينة، كان قصر ويليام والكر يتلألأ بالأضواء. طاولات فاخرة، كؤوس تلمع، وضحكات رجال يرتدون بدلات السلطة والقانون. لم يُعلن رسمياً عن سبب الحفل، لكن الجميع كان يعرف أنه "نخب الانتصار".

وقف ويليام في وسط الحديقة، يستند إلى عصاه بزهو، والابتسامة لا تفارق شفتيه.

قال أحد الضباط بامتنان: "يبدو أن المدينة ستنعم بهدوء طويل هذه الأيام."

رفع ويليام كأسه بوقار: "الهدوء لا يمنحه الحظ، بل تصنعه القرارات الحازمة."

لم يُنطق اسم ليو، ولم تُذكر المزرعة المحترقة، لكن نظرات ويليام كانت تشي بنصرٍ شخصي ساحق.

في زاوية منعزلة، كانت لونا تقف بفستانها الأنيق، وجهها هادئ كقناع من شمع، لكن عينيها كانتا تائهتين في مكان آخر. لم تشاركهم الضحك ولا النخب. كانت تلتقط شظايا كلماتهم: "انتهى أمرهم"، "ضربة معلم".

شعرت بوخز قاتل في قلبها، وهمست لنفسها برعب مكتوم: "انتهى أمر من؟"

نظرت إلى والدها الذي يوزع الابتسامات، ولم تكن تدرك بعد أن ثمن سعادة والدها كان حرق مستقبلها.

4. رصاصة الكلمات

في صباح اليوم التالي، اخترق الهدوء القاتل في السجن صوت خطوات شرطيين يمران بجانب زنزانة ليو. لم يدركا أن "الرأس الكبير" القابع خلف القضبان يصغي لكل حرف.

قال الأول: "هل رأيت البذخ في عشاء الأمس عند آل والكر؟"

ضحك الثاني: "وكيف لا؟ لقد كان احتفالاً بسقوط رافاييل مولر. يقولون إن القبض عليه تم بفضل معلومة ذهبية."

عقب الأول: "سمعت أن لابنته يداً في الأمر.. عائلة تعرف كيف تنظف قذارتها."

ابتعد الشرطيان، لكن كلماتهما ظلت تدور في الزنزانة مثل إعصار أسود.

جلس ليو ببطء، وشعر بشيء ما في داخله ينكسر نهائياً، مخلفاً وراءه حطاماً لا يمكن ترميمه.

"إذن.. لم يكن والدك وحده من خطط لهذا.." قال ليو وصوته يقطر مرارة.

أغمض عينيه، فلم يعد يرى ملامحها الرقيقة، بل رأى خيالها وهي تمسك الهاتف وتقول ببرود: "لدي مفاجأة".

"نعم.. كنتِ أنتِ المفاجأة يا لونا."

في تلك اللحظة، مات ليو القديم. تحول الحب في عروقه إلى غضب أسود، والثقة التي بناها تحولت إلى رماد تذروه الرياح.

"لن أكون ضعيفاً بعد اليوم.. وإن خرجتُ من هنا، فلن تعرفي الرجل الذي كنتُه يوماً."

الفصل الحادي والعشرون: فطور تحت الشمس.. وأسرار خلف الابتسامات

1. مائدة من ذهب وزيف

استيقظت لونا على خيوط شمسٍ ذهبية تسللت برقة عبر ستائر غرفتها الحريرية، في صباحٍ ناصعٍ بدا وكأن المدينة قررت فيه ارتداء قناع النسيان عما حدث في الليالي الماضية.

في الحديقة الخلفية لقصر آل والكر، نُصبت مائدة الفطور تحت ظلال شجرة بلوط عتيقة؛ خزفٌ مصقول، وعصير برتقال يتلألأ كالياقوت الأصفر، ورائحة القهوة السوداء تمتزج بعبق الخبز المحمص والزبدة. كان ويليام والكر يترأس الطاولة ببدلته المنزلية الأنيقة، يطالع الصحيفة بنظراتٍ هادئة لم تخفِ زهو المنتصر.

حين هبطت لونا الدرج الحجري بفستانها العاجي، سكن الهمس بين أخويها؛ دانيال المشاكس وكاثرين الغيورة.

"ها قد استشرقت شمس البيت،" قال ويليام مبتسماً، ليرد دانيال بسخرية: "بل قمر المحكمة القادم،" وتضيف كاثرين بنبرة حادة: "نعم، القاضية التي لا تخطئ أبداً."

جلست لونا بصمت، تقطع خبزها بلا شهية، لتجد نظرات والدها تخترق هدوءها: "ملامحكِ تقول إنكِ تفكرين كثيراً.. هل من أخبار في مكتبك؟"

أجابت بهدوء: "مجرد ملفات عادية."

"ملفات عادية؟" سألت كاثرين وهي ترفع حاجبها، ليتدخل دانيال ضاحكاً: "دعوها، ربما تخطط للسيطرة على المدينة مثل أبي."

رمق ويليام ابنه بنظرة صارمة، بينما ابتسمت لونا بمرارة: "لا أريد السيطرة على المدينة.. يكفيني أن أسيطر على نفسي."

كسر دانيال حدة الموقف حين سقطت قطعة فطيرة على بنطاله الأبيض، فانفجرت كاثرين ضاحكة، ولم تتمكن لونا من منع ابتسامة خفيفة. علق ويليام بوقار: "الحروب تبدأ أحياناً بأخطاء صغيرة يا دانيال."

وخزت كلمة "حروب" قلب لونا، فنهضت معتذرة بوجود موعد مع "صديقة محامية". اقترب ويليام وقبل جبينها قائلاً بفخر: "هذا ما أحب سماعه.. اختاري أصدقاء يشبهون مستقبلكِ، لا ماضيكِ."

2. الطريق إلى الحقيقة.. والاعتراف

خارج أسوار القصر، استنشقت لونا الهواء بعمق كأنها تتخلص من قناع الابنة المطيعة. اتصلت بـ "بين كارتر"، الشاب ذو النظرات الحادة والصوت الدافئ، الذي ما إن صعد السيارة حتى سألها: "هل ستخبرينهم بالحقيقة؟"

أجابت وهي تحدق في الطريق: "سأخبرهم أنه حي."

"وهل هو كذلك؟"

"أشعر بذلك في أعماقي."

سألها بين فجأة: "أنتِ تحبينه، أليس كذلك؟"

ساد صمت عميق قبل أن تجيب بلوعة: "لم أحب أحداً مثله.. معه فقط شعرتُ أنني إنسانة، لا مجرد لقب أو اسم لامع. لم يكن يطمع بي، ولم يكن يخشى سلطتي."

ضحك بين محاولاً تخفيف التوتر: "إذن وقعتِ في حب رجل لا تهمه الألقاب وأنتِ ابنة والكر؟ يا للمفارقة.. ربما أنا غيور لأنني كنت المرشح الأول."

ردت لونا بضحكة صادقة: "كنت تملك فرصة.. لولا قصات شعرك الكارثية!"

3. في بيت آل مولر: صور من زمن البراءة

وصلت السيارة إلى حي قديم يسكنه الحنين، وتوقفت أمام منزل بسيط بلون الرمل. فتحت "إليزابيث مولر" الباب بملامح متعبة وعينين قويتين، وخلفها زوجها "توماس" ذو الشعر الرمادي.

دخلت لونا إلى الدفء الذي تفوح منه رائحة القهوة، لتجد صور ليو تملأ الجدران.

"هو على قيد الحياة،" قالتها لونا بوضوح، لتنير بريق الأمل في أعينهم، "لكنه مطارد.. وسأجده، أعدكم."

سألها توماس: "ولماذا تفعلين كل هذا؟"

أجابت بصدقٍ عارٍ: "لأنني أحبه."

أخرجت إليزابيث صندوق الذكريات؛ صور ليو الطفل الذي يطارد طائرة ورقية رغم خوفه من المرتفعات، وليو المراهق الذي يصر على إصلاح دراجته بنفسه. "كان عنيداً، لا يبكي إذا سقط، بل ينهض بسرعة ليتأكد أن أحداً لم يره،" قالت الأم بحنان.

أما توماس، فقد خانته ذاكرته بسبب الصدمة: "أعرف أنه ابني، لكني لا أذكر صوته وهو طفل.. قلبي يتعرف عليه، لكن ذاكرتي تائهة."

4. الوداع الأخير.. والتحذير الغامض

توقفت إليزابيث عند صورة ليو في مدخل البيت، النظرة الأخيرة قبل اختفائه. "كان يريد إنهاء أمر ما قبل رحيله،" قالت الأم وهي تنظر لـ لونا، "كنتِ أنتِ ذلك الأمر، أليس كذلك؟"

لم تنكر لونا، بل تأملت صورة ليو وهو يحمل طفلاً صغيراً برقة تناقض صورته كمجرم. "كان يقول إن العالم خارج هذا الباب ليس رحيماً، لذا يريد أن يبقى إنساناً في بيته،" أضافت إليزابيث، ثم سألت لونا بلهفة: "هل لا يزال إنساناً؟"

أجابت لونا بثبات: "نعم.. حتى في قسوته، يخاف أن يؤذي من يحب."

عند الوداع، أمسكت إليزابيث يد لونا وضغطت عليها بقوة: "إذا كنتِ تحبينه حقاً.. فاحذري ممن يقف خلف الستار."

تجمدت لونا: "من تقصدين؟"

لكن إليزابيث اكتفت بالقول: "الأمهات يشعرن بالأشياء قبل وقوعها.. حتى بلا دليل."

خرجت لونا وقلبها يئن تحت وطأة الحنين والاكتشافات الجديدة، بينما بقي توماس في الداخل، يحدق في الصور ويهمس في صمت: "ليو.. عُد لي، علّ قلبي يتذكر."

مشهد مؤثر جداً! هل تريد أن نتابع لونا وهي تبدأ رحلة

الفصل الثاني والعشرون: أول الخيط.. حين تتكلم التفاصيل الصغيرة

1. لغز التوقيت المفقود

غادرت لونا منزل آل مولر بخطواتٍ مثقلة، تاركةً خلفها "إليزابيث" تراقبها من وراء الستائر، و"توماس" يصارع ثقوب ذاكرته. جلست في سيارتها، لكنها لم تدر المحرك؛ كانت عيناها مسمرتين على الصورة التي استعارتها لـ ليو عند باب منزله.

تأملت لونا تفاصيل الخلفية بعين القاضية المحققة: الباب الخشبي، الحقيبة الصغيرة المركونة، وساعة الحائط التي كانت تظهر بوضوح من خلال الزجاج الجانبي.. كانت تشير إلى التاسعة إلا ربعاً.

تسمرت يد لونا. في ذلك اليوم المشؤوم، أرسلت له رسالة في تمام التاسعة صباحاً، وقد رد عليها بعد دقائق معدودة. "كيف أمكنه الرد وهو خارج المنزل بالفعل؟" همست لنفسها برعب.

رفعت رأسها ببطء وقالت بصوت مسموع: "لم يُختطف من هنا كما زعموا."

لاحظ "بين" شحوب وجهها فسألها بقلق: "ما الذي اكتشفتِه؟"

أجابت لونا: "التوقيت لا يتطابق يا بين. عائلته قالت إنه غادر في الصباح الباكر، لكن هاتفه ظل متصلاً بالشبكة حتى الظهيرة. هذا يعني أنه لم يُؤخذ غدراً فور خروجه.. كان هناك موعد مُدبر، وفي مكانٍ محدد."

ثم أضافت بيقينٍ مر: "وكان يثق تماماً بمن سيقابله."

2. العودة إلى الرماد

لم تكن وجهة لونا القادمة القصر، بل المزرعة القديمة؛ ذلك المكان الذي شهد ولادة نبضهما الأول. كان الطريق خالياً والسماء تكتسي بلونٍ باهت يزيد من برودة الجو.

"هل تعتقدين حقاً أنه عاد إلى هناك؟" سأل بين بشك.

ردت لونا: "لا أعرف.. لكن إن كان ليو سيترك أثراً أخيراً، فسيختبئ في المكان الذي قال لي فيه يوماً: هنا أستطيع أن أتنفس."

عند وصولهما، بدت المزرعة كجثة هامدة؛ العشب طال حتى غطى المداخل، والصمت كان يطبق على الأنفاس. ترجلت لونا، وكل خطوة كانت توقظ ذكرى قديمة. دلفت إلى البيت الخشبي، ولاحظت أن الغبار على الطاولة لم يكن كثيفاً بما يكفي ليوحي بهجرانٍ طويل.

قال بين وهو يتحسس الأسطح: "شخص ما كان هنا مؤخراً."

جثت لونا قرب المدفأة، ومررت أناملها على الأرضية؛ كان هناك رماد حديث.. قلبها بدأ يقرع طبول الحرب.

3. شفرة ليو السرية

بينما كانت لونا تمسح المكان بنظراتها، توقفت فجأة أمام الجدار المحاذي للنافذة. رأت خدشاً عميقاً في الخشب لم يكن موجوداً من قبل. اقتربت أكثر، لتكتشف أنه ليس خدشاً عشوائياً، بل كان حرف (L)، وأسفله خط صغير ونقطة.

ابتلعت ريقها وشعرت بقشعريرة تسري في جسدها؛ كانت تعرف هذه العادة القديمة لدى ليو، كان يضيف تلك النقطة أسفل توقيعه كإشارة سرية لا يفهمها سواه.

"إنه هنا.. أو كان هنا،" همست لونا.

قال بين: "هذا لا يثبت وجوده الآن."

ردت بإصرار: "لكنه أرادني أن أجد هذا المسار."

بحثت لونا تحت الطاولة، لتجد ورقة صغيرة مطوية بعناية فائقة ومثبتة بشريط لاصق خفيف. سحبتها بيد ترتجف وفتحتها. لم تجد عنواناً، بل جملة واحدة مكتوبة بانحناءات حروفه التي تحفظها ظهراً عن قلب:

"ليس كل من يُقيّد.. أسير."

4. فك الشفرة.. الطريق إلى الزنزانة

جلست لونا على الكرسي الخشبي، وتراجع القلب ليترك الساحة للعقل التحليلي.

"إذا كان قد كتب هذه الجملة، فهذا يعني أنه يدرك تماماً أين هو، وأنه لم يفقد السيطرة بالكامل،" قالت لونا بتركيز شديد.

سألها بين: "وماذا لو كان هارباً فقط ويحاول تضليلك؟"

هزت رأسها بقطع: "لو كان يهرب، لما ترك خلفه فتات خبز يقودني إليه."

صمتت لونا للحظة، ثم رفعت عينيها نحو بين، وقد استضاءت ببريق الحقيقة: "السجن."

استغرب بين: "ماذا تقصدين؟"

أجابت لونا بحدة وثقة: "قال: ليس كل من يقيد أسير. إنه في مكان رسمي.. مكان يوضع فيه الناس في قيود لكنهم يملكون صوتاً، أو ربما يملكون مخرجاً. ليو ليس مختطفاً لدى عصابة يا بين.. ليو معتقل رسمياً!"

في تلك اللحظة، تبدد الضباب عن عينيها. الخيط الصغير تحول إلى جسر، والشك صار يقيناً مرعباً: ليو خلف القضبان، ووالدها هو السجان.

الفصل الثالث والعشرون: حين يصبح البيت ساحة مواجهة

1. زلزال في القصر

اقتحمت لونا قصر آل والكر بخطواتٍ لها صدى الرصاص على الرخام البارد. لم تخلع معطفها، ولم تلتفت للصور العائلية المعلقة على الجدران؛ كانت عيناها تقدحان شرراً لا يطفئه إلا الجواب.

فتحت باب مكتب والدها دون طرق. كان ويليام غارقاً بين ملفاته، فرفع رأسه بهدوءٍ مستفز: "هذا دخول غير معتاد يا لونا."

لم تتحرك لونا من مكانها، بل وقفت كالسيف أمام مكتبه: "أين هو؟"

أنزل ويليام نظارته ببطء شديد، متظاهراً بعدم الفهم: "من تقصدين؟"

"لا تجعلني أكرهك أكثر مما بدأت فعلاً،" قالتها بنبرة جعلت الهواء يتجمد في الغرفة.

تغيرت نبرة ويليام إلى البرود الجليدي: "أنتِ تتجاوزين حدودكِ يا ابنتي."

ردت بصوتٍ مهتز من شدة القهر: "وأنتَ تجاوزت حدود حياتي وحطمتها! هو في السجن، أليس كذلك؟"

لم يُجب ويليام. وكان صمته هو الاعتراف الذي لم ترغب في سماعه، فشعرت بقلبها ينفطر.

"كنتُ أظنك تحميني.. لا تحطم كل ما أؤمن به من عدل،" همست لونا بمرارة.

رد ويليام بحزم: "أنا أنقذكِ من نفسكِ، ذلك الرجل مجرم."

صرخت لونا لأول مرة في وجهه: "ذلك الرجل إنسان! أنت لا تنقذني.. أنت تنقذ اسمك، وتخاف أن يُقال إن ابنة والكر أحبت من لا يليق بلقبها."

ساد صمتٌ خانق، قبل أن يقول ويليام: "ستشكرينني يوماً ما."

نظرت إليه لونا بنظرة وداع أخيرة: "لن أسامحك أبداً." ثم استدارت وغادرت، تاركةً خلفها رجلاً يظن أنه انتصر، بينما هو قد خسر ابنته للتو.

2. الانكسار أمام أبواب الحديد

لم تتردد لونا؛ قادت سيارتها بجنون نحو مركز الشرطة. دخلت المركز ووجهها شاحب، وطلبت برعشةٍ لا يمكن إخفاؤها رؤية "ليو مولر".

تبادل الحراس نظراتٍ مرتبكة قبل أن يصدوها: "الزيارات موقوفة."

"أنا محامية!" هتفت لونا، لكن الرد كان حاسماً: "ليس لديكِ تصريح لهذه القضية.. غادري المكان."

هنا، ولأول مرة، خانتها قوتها. انهارت لونا على مقعدٍ خشبي قريب، وغطت وجهها بيديها. لم يكن نحيبها عالياً، بل كان ارتجاف كتفيها يحكي قصة قهرٍ لا يوصف.

فجأة، شعرت بظلٍ يقترب؛ كان والدها قد لحق بها.

"لونا.. لنناقش الأمر في البيت،" قال ويليام بهدوء.

رفعت رأسها، وكانت عيناها محمرتين بدموعٍ حارقة: "لا تقلق.. لن أُحرج اسمك العظيم أكثر من ذلك. كنتُ أبحث عن الحقيقة، لكن يبدو أن الحقيقة في هذه المدينة تحتاج إلى إذنك الشخصي."

نهضت ببطء، ومرت بجانبه كغريبة، وخرجت إلى ليل المدينة.

3. شقة "بين".. الملاذ الأخير

طرقت باب شقة "بين كارتر" في الطابق الخامس بضعف. ما إن فتح الباب حتى دخلت كمن يهرب من إعصار: "لا أستطيع العودة إلى القصر.. أريد البقاء هنا."

احتواها "بين" بهدوئه المعتاد: "هذا بيتكِ أيضاً."

بدأ هاتف لونا بالرنين.. "أبي". أغلقته مرة، مرتين، ثلاثاً، ثم قذفت به بعيداً.

بعد دقائق، اهتز هاتف "بين". كان ويليام.

أجاب بين بنبرة رسمية: "نعم سيدي.. هي هنا بأمان. تحتاج فقط لبعض الهدوء.. سأعتني بها."

أغلق الخط ونظر إليها: "إنه قلق عليكِ."

ردت لونا بجمود: "وأنا أيضاً قلقة.. على ما تبقى مني."

4. حنين تحت ضوء القمر

في الشرفة الصغيرة، تحت سماء المدينة المضاءة، جلس الاثنان يحتسيان القهوة في صمتٍ قطعه "بين" محاولاً انتشالها من حزنها: "تذكرين حين سرقنا مفاتيح سيارة والدك في العاشرة لنهرب؟"

ابتسمت لونا رغم الغصة: "لم نصل لنهاية الشارع لأنني ضغطت على البوق بدل المكابح!"

ضحكا معاً وهما يسترجعان ذكريات الطفولة، حين كان أكبر همهم كسر نافذة المدرسة بكرة قدم طائشة.

لكن الضحكة انطفأت بسرعة في عيني لونا، وعاد الحزن ليخيم على ملامحها.

"ليو كان يضحك بطريقة مختلفة.." همست والدموع تنزلق على وجنتيها، "حين يبتسم، تشعر أن العالم رغم ظلمه.. لا يزال مكاناً يُحتمل."

لم تستطع إكمال جملتها؛ نهضت فجأة ودخلت الغرفة وأغلقت الباب، لتترك دموعها تتدفق بحرية خلف الأخشاب المغلقة.

بقي "بين" وحيداً في الشرفة، يراقب أضواء المدينة ويهمس لنفسه بيقين: "لن أتركِكِ وحدكِ في هذا الجحيم يا لونا."

الفصل الرابع والعشرون:

تراتيل الدم

: برزخ الحديد والملح

داخل ردهات سجن المدينة، حيث الوقت لا يمضي بل يتعفن، كان الضوء النيوني الشاحب يجلد الجدران الإسمنتية العارية. تفوح في الأجواء رائحة "الموت النظيف"؛ مزيج خانق من المطهرات القوية ورائحة الصدأ والعرق البشري المكتوم.

كان ليو مولر يقف في نهاية الممر كتمثال من رخام أسود، يراقب المشهد بعينين صقليتين. في الزاوية، كان هناك شاب نحيل، غضّ الإهاب، يرتجف تحت سيل من التقريع والإهانات التي يقذفها سجين ضخم الجثة، كأنما يتلذذ بسحق ما تبقى من كرامته.

"انظروا إليه.." قال الضخم بضحكة أجشة هزت القضبان، "قطة مذعورة لا تجرؤ حتى على رفع بصرها في حضرة الرجال."

لم يحتمل ليو مشهد الانكسار. تقدم خطوة، وكانت لخطوته رنة ثقيلة أسكتت الضحكات العابرة.

"اتركه." قالها ليو بصوت منخفض، لكنه يحمل صرير النصال.

التفت السجين الضخم ببطء، وعيناه تشتعلان بالتحدي: "أوه، انظروا من قرر أن يلعب دور القديس اليوم! هل تظن أنك ستمتعني؟"

اقترب السجين حتى اختلطت أنفاسهما الكريهة بصمت ليو الحاد. رد ليو بهدوء جليدي لم يتزحزح: "إن اضطررت.. سأفعل."

اندلع الانفجار فجأة. اشتبكت الأجساد، وسقط الاثنان على الأرض الصلبة في صراع بدائي. وسط جلبة الصراخ وأقدام الحراس القادمة، لمع نصل غادر.. خنجر صغير بدائي الصنع شقّ عتمة الممر. حاول ليو كبح المعصم الهائج، لكن النصل كان أسرع.

اخترق الحديد البارد خاصرته اليسرى.

تسمر الزمان. اتسعت عينا ليو، ليس خوفًا، بل دهشة من برودة الموت التي تسللت إليه. بدأ اللون الرمادي لقميصه يبتلع بقعة قانية تتوسع بإصرار. سقط على ظهره، يراقب السقف الإسمنتي وهو يبتعد ويغرق في ضباب أبيض، بينما صرخة داخلية تردد في وعيه المهتز: "ليس كل من يُقيّد.. أسير." ثم انطفأ العالم.

المشهد الثاني: شروق زائف

في شقة بين كارتر، كان الصباح يتسلل عبر الستائر بنعومة خادعة. استيقظت لونا بانتفاضة مفاجئة، وكأن ناقوسًا خفيًا دق في صدرها محذرًا.

في الخارج، كان "بين" قد رتب مائدة فطور دافئة؛ رائحة الخبز والزهور البيضاء كانت تحاول ترويض القلق الكامن في الهواء.

"صباح القاضية المستقبلية،" قالها بين بابتسامة وادعة.

تسمرت عيناها على الساعة. صرخت بفزع: "جلسة اليوم! كيف نسيت؟"

حاول بين تهدئتها: "اجلسي لخمس دقائق، لونا. جسدكِ يحتاج للوقود."

لكنها كانت قد حزمت أمرها، ممسكة بحقيبتها كدرع: "لا وقت.. يجب أن أستعد، يجب أن أغير هذه الفوضى التي أرتديها."

قال بين وهو يراقب ركضها نحو الباب: "لا تهربي من نفسكِ طوال الوقت يا لونا."

المشهد الثالث: مواجهة في عرين الأسد

دخلت قصر "والكر"، فاستقبلها الصمت الثقيل الذي يميز هذا البيت. كان والدها، ويليام والكر، يجلس في الصالة كأنه جزء من الأثاث العتيق، يراقبها بنظرات محملة بالعتاب الصامت.

تجاهلته وصعدت لتبديل ثيابها. نزلت بعد دقائق ببدلة رسمية داكنة، تخفي خلف وقارها هشاشة روحها. جلس أمامها وقال بنبرة سلطوية: "علينا أن نتحدث. أنتِ تندفعين نحو الهاوية، ولن أسمح بذلك."

لم تجبه، فاكمل بحدة: "هو ليس رجلاً يناسبكِ، لونا."

رفعت بصرها إليه، كانت عيناها جافتين تمامًا، لكنهما مشحونتان بخيبة أمل عمرها سنوات: "المناسب.. كلمة مطاطة تستخدمها لتغليف رغبتك في السيطرة."

"أنا أحميكِ،" رد ويليام ببرود.

"لا يا أبي، أنت تحميني من حقّي في الاختيار."

همس ويليام بكلمات مسمومة: "سيؤذيكِ."

ردت وهي تهمّ بالخروج، تاركة خلفها صدى طعنة نفسية: "وأنت.. ألم تفعل؟"

المشهد الرابع: ميزان العدالة المهتز

في قاعة المحكمة، كان الهواء مشبعًا بالتوتر. طرق القاضي بمطرقته، معلنًا بدء القضية "47-ب".

وقفت لونا. الكاميرا الذهنية تركز على تفاصيل وجهها؛ ثبات كاذب وقلق ينهش الروح.

"حضرة القاضي، الأدلة لا تقيم وزناً للقصد الجنائي.. نحن أمام إهمال، لا جريمة."

اعترض الخصم، لكنها تابعت ببراعة آلية، تسرد الشهادات وتفكك الملفات، بينما كان صوتها الداخلي يهمس بعيدًا عن لغة القانون: "أين هو؟ هل قلبي الذي يؤلمني أم هو؟" انتهت الجلسة بحكم مؤجل، لكن الحكم الحقيقي كان ينتظرها خلف الأبواب.

المشهد الخامس: المكالمة الملعونة

خرجت من القاعة تتنفس الصعداء، ليرن هاتفها. "بين".

أجابت بابتسامة منهكة: "نعم؟ هل هناك مفاجأة أخرى من مفاجآتك؟"

الصمت الذي أعقب سؤالها كان أثقل من الجبل. نبرة بين كانت خافتة، مكسورة: "لونا.. أنا في المستشفى."

المشهد السادس: خلف حاجز الزجاج

اندفعت لونا عبر أروقة المستشفى، تحاول إقناع نفسها بأن الأمر بسيط. رأت "بين" عند المدخل، فحاولت التمسك بخيط دعابة واهٍ: "لا تخبرني أنك تسممت من فطورك المحروق!"

لكن وجه "بين" الجامد قطع كل خيوط الأمل. "ليو تعرض لطعنة في السجن. هو في العناية المركزة."

تراجع العالم من حولها. انكمشت الرؤية حتى لم تعد ترى سوى الفراغ. صرخت صرخة مكتومة: "أين هو؟!"

قادها بين إلى النافذة الزجاجية. وهناك، كان ليو مولر. الرجل الذي بدا دائمًا كقوة لا تُقهر، ممددًا كطير جريح وسط غابة من الأنابيب والأجهزة. شحوبه كان يصرخ في وجهها.

وضعت كفها المرتجفة على الزجاج البارد، وهمست بدموع هطلت أخيرًا: "أنا هنا.."

جاءت أختها كاثرين لتشد من أزرها بكلمات مواساة فارغة، حتى طمأنهم الطبيب بأن الطعنة أخطأت الأعضاء الحيوية بمعجزة ما.

المشهد الأخير: الصدّ

في المساء التالي، وبعد إصرار من "بين"، عادت لونا إلى الشقة لترتاح قليلاً، لكن راحتها كانت في المطبخ. طبخت له حساءً دافئاً، مزجت فيه كل دعواتها وقلقها.

عادت إلى المستشفى، تحمل وعاء الحساء كأنه أثمن ما تملك. دخلت غرفته بقلب يرتجف شوقاً وخوفاً. فتح ليو عينيه ببطء، أثقلهما التعب والألم. رأى طيفها عند الباب.. رأى لونا التي ضحى بنفسه ليبقى بعيداً عنها.

تصلبت ملامحه رغم الوهن. وبدلاً من كلمة الشكر أو نظرة الحنين، نطق بصوت خشن، قاطع، ومؤلم أكثر من طعنة الخنجر:

"اخرجي."

تسمرت لونا في مكانها: "ليو.."

رفع ليو نبرته بمرارة قاسية: "قلتُ.. اخرجي."

هبط الصمت في الغرفة كجدار إسمنتي ينهار، مخلفاً وراءه حطام قلبين في عتمة المستشفى.

الفصل الخامس والعشرون: ترانيم التسلل.. وقُبلة خلف القضبان

كان الليل قد انتحر عند عتبة منتصفه، والمستشفى غارق في صمتٍ رخامي ثقيل، كأنما الجدران نفسها قد أغمضت عينيها لتنام. أضواء الممرات شاحبة، تترنح كأشباحٍ متعبة، بينما ينساب طنين الأجهزة الطبية في الأرجاء كهمساتٍ لموتى لم يرحلوا بعد.

وفجأة— انكسر هذا السكون بارتطامٍ مكتوم.

— "آه!"

رفعت لونا رأسها وهي تفرك جبينها الذي اصطدم بصدرٍ صلب، ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة بلهاء، مشبعة بنشوة مغامرة غير محسوبة:

— "آه.. صديقي المخلص! أكنت تنتظرني هنا؟"

كان بين كارتر يقف أمامها، مذهولاً من رؤيتها في هذا الوقت، يلتفت يميناً ويساراً بجنون كأنه يخشى أن تنشق الأرض عن كارثة.

— "ما الذي دهاكِ يا لونا؟ أجننتِ تماماً؟ الساعة تجاوزت الواحدة فجراً!"

رفعت كتفيها ببراءة قطة بريئة من تهمة سرقة الحليب:

— "جئتُ لرؤية حبيبي.. لم يستطع جفني أن ينطبق قبل أن تلمس عيني وجهه."

فتح "بين" فاهه في صدمة هزت وقاره:

— "حبيبك؟! لونا، إنه في جناح خاضع لحراسة شرطية مشددة، وليس في نزهة!"

اقتربت منه، وهمست في أذنه كطفلة تشرح خطة للسطو على متجر ألعاب:

— "ولهذا السبب تحديداً.. أنا هنا، بين يديك."

مرر بين يده على وجهه في يأسٍ جلي: "أقسم أنني سأفقد وظيفتي، وربما حريتي بسببك."

ردت بلوعة صادقة هزت ثباته: "ولكنني سأفقد عقلي ومرساتي إن لم أره.. أرجوك."

صمت "بين" لثانية بدا فيها كمن يصارع ضميره المهني أمام طوفان عينيها، ثم زفر بيأس: "تعالي وراءي.. وليغفر الله لي."

المشهد الثاني: غزو القطة "لونا"

لم يكن الباب خياراً مطروحاً؛ فالشرطيان أمام الغرفة يقفان بصلابة التماثيل الإغريقية، بوجوه خالية من أي ملمح بشري. قادها "بين" عبر ممر خلفي موحش، وانتهيا عند نافذة ضيقة تطل على حديقة المستشفى الخلفية.

— "لن أفعل هذا.. سأندم يقيناً.." كان يتمتم كمن يقرأ تعويذة طرد الأرواح.

— "ستفعل، لأنك بطل روايتي المفضلة،" قالتها وهي تضع قدمها برعونة فوق الحافة.

— "لونا! انتبهي، الارتفاع—"

وقبل أن يكمل جملته، كانت قد قفزت بخفة لا تملكها إلا أنثى يحركها الأدرينالين والحب. التفتت إليه بزهو: "أرأيت؟ أنا قطة بارعة."

رد بين وهو يغلق النافذة خلفها: "أنتِ كارثة متنقلة.. اذهبي قبل أن نُعدم معاً."

انزلقت لونا إلى داخل الغرفة كظلٍ ناعم. كان ليو غارقاً في نومٍ قلق، وجهه الشاحب تحت الضوء الخافت يبدو كلوحة حزينة، والأسلاك تلتف حول جسده كقيود خفية، وجهاز المراقبة يدق بانتظام رتيب يحاكي وجيب قلبها. مشت نحوه على أطراف أصابعها، تحبس أنفاسها كي لا تخدش سكون لحظته.

المشهد الثالث: اعتراف تحت جنح الخوف

جلست بجانبه، ومدت يدها المرتجفة لتلمس خده بحنانٍ فائق، كأنها تلمس بتلة وردة تخشى أن تذبل لمجرد اللمس.

— "ليو.." همست باسمه كصلاة.

فتح عينيه فجأة، فزعاً كجندي في خندق. رآها، فرمش مرتين غير مصدقٍ أن الطيف الذي يطارد أحلامه قد تجسد أمامه.

— "لونا؟! هل.. هل فقدتُ عقلي؟ أم أنني متُّ وهذا طيفك؟"

ابتسمت ابتسامة مضحكة وسط دموعها: "إن كان هذا وهماً، فأتمنى أن نغرق فيه معاً."

كاد يضحك لولا الألم في خاصرته، ولولا إدراكه لخطورة موقفها: "أنتِ مجنونة حقاً! هذا سجن محاط بالشرطة، وليس نُزُلاً لإحياء ذكريات العشاق!"

وفجأة.. قرعٌ عنيف على الباب.

— "السيد ليو؟ مع من تتحدث؟" صوت الشرطي كان كافياً لتجمد الدماء في عروقها.

— "اختبئي! الآن!" همس ليو بذعر.

انحشرت لونا بلمح البصر تحت السرير المعدني، تكتم أنفاسها بيديها، بينما يحاول ليو استعادة هدوئه المصطنع. دخل الشرطيان، يجولان بنظراتهما الشكاكة في أرجاء الغرفة.

— "كنا نسمع صوتاً غريباً هنا."

ابتلع ليو ريقه، وقال بصوتٍ مثقل بالتعب: "كان كابوساً.. يبدو أنني كنت أصرخ في نومي."

— "تأكد من الراحة، ولا تطل الكلام مع أشباحك،" قال أحدهما ببرود وغادرا.

بعد ثوانٍ من الصمت الذي يشبه الوقوف على حافة هاوية، برزت لونا من تحت السرير، شعرها مشعث، وعلى وجنتها مسحة من الغبار، وعيناها تلمعان ببريقٍ عابث. نظر إليها ليو، ولم يتمكن من كبح ضحكة مكتومة هزت صدره المتعب.

— "أنتِ.. أنتِ كائن غير طبيعي يا لونا."

— "وأنت تحبني بهذا الجنون، أليس كذلك؟"

سكت ليو فجأة، وخفتت ضحكته لتحل محلها نظرة عميقة تملؤها الحقيقة.

— "لقد عرفت الحقيقة يا لونا."

تصلب جسدها، وهتف صوت في أعماقها: لم ترَ من الحقيقة إلا قشورها.. لكنها اكتفت بهز رأسها: "سنتحدث في كل شيء حين تسترد عافيتك. الآن، ارتح."

— "لن أترك هذا الموضوع يمر."

— "ولا أنا.. نحن عالقان معاً."

المشهد الرابع: حيث يتوقف الزمان

اقتربت منه أكثر، حتى تلاشت المسافات بينهما. مد ليو يده الواهنة، ومرر أصابعه ببطء بين خصلات شعرها المبعثرة، وكأنه يعيد ترتيب فوضى حياته بلمساته. قال بصوتٍ رخيم، مشبعٍ بحرارة الصدق:

— "كنتُ أظن أنني فقدتكِ للأبد هناك.. في تلك العتمة، لم يكن يمنحني النبض سوى صدى صوتك في رأسي، ووجهك الذي كان ينبثق لي كلما أغمضت عيني."

ارتجف صوتها كوترٍ مشدود: "وأنا.. لم أتوقف لحظة عن تتبع أثرك."

أمسك يدها، وشد عليها بقوة لم تكن تتوقعها من جسدٍ منهك: "لونا.. أنتِ لا تدركين حجم ما أحمله لكِ. أحبكِ لدرجة أنني مقت نفسي حين سمحت للشك أن يلوث صورتك في قلبي. أحبكِ لدرجة أنني لو وُضعت بين حريتي وبينكِ، لاخترت قيدكِ دون تردد."

صمتت الكلمات أمام هيبة الاعتراف. تابع وهو ينظر إلى عينيها بغرقٍ تام:

— "أحب جنونك الذي قادكِ لتقفزي من النوافذ لأجلي.. أحب الطريقة التي ترينني بها، كأنني مركز الكون. أنتِ تجعلينني أرغب في أن أكون رجلاً جديراً بهذا الحب.. لأجلكِ وحدكِ."

تداخلت أصابعهما في عتمة الغرفة، وصار الليل أهدأ، وأكثر حناناً، بينما بقيت يده تتشبث بيدها كغريقٍ وجد أخيراً شاطئ النجاة.

الفصل السادس والعشرون: ترنيمة الحرية المقيدة.. ودفء الجذور

المشهد الأول: فجر الحديد والياقوت

كان الصباح نقيّاً لدرجة الألم، كصفحة بيضاء لم يلمسها دنس البشر بعد. انسلّ ضوء الشمس من بين شقوق الأبنية الشاهقة كمصهور الذهب، يداعب أرصفة المدينة التي استيقظت على لسعة هواء بارد يحمل في طياته وعوداً ليومٍ طويل ومثقل بالأحداث.

وقفت لونا أمام بوابة السجن المؤقت، كحارسة أسطورية لذكرى ليلة البارحة. اليوم، ستُطوى صفحة العناية المركزة، ليُعاد ليو إلى زنزانته في السجن المركزي.

خرج ليو.. لم يكن خروجاً عادياً. كان يمشي بين الحرس كملكٍ مخلوع، مكبّل اليدين بسلاسل معدنية كانت ترنّ مع كل خطوة رنيناً موحشاً، لكن وجهه — ويا لغرابة القدر — كان يفيض بإشراقٍ يتحدى عتمة السجون.

التقت نظراتهما. انخلع قلبها، لكنها جاهدت لترسم على وجهها قناع القوة.

اقترب منها قدر ما سمحت به القيود التي حفرت في معصميه. همس بنبرة رخيمة شابتها بحّة التعب: "صباح الخير، أيتها الآنسة المجنونة."

حاولت لونا أن تلملم شتات صوتها الخائن: "صباح الخير، أيها السجين الذي يزداد وسامة خلف القضبان."

مال نحوها بجسده المتعب، وفي تلك اللحظة رنّت الأصفاد رنة جافة بينما كان يهمس في أذنها: "أنا سعيد الآن.. حتى لو كان طريقي يؤدي مباشرة إلى قاع جهنم."

توقفت الرئة عن العمل لحظة. ثم، وبشقاوة طفل لم تقتله المحن، غمز لها بخفة.

تلك الغمزة لم تكن مجرد حركة عين، بل كانت رسالة مشفرة، أرشيفاً كاملاً لليلة البارحة، لتلك اللحظة تحت السرير، لتلك الوعود المكتومة.

اشتعلت وجنتاها بحمرة قانية، وعضت شفتها السفلى لتقمع ابتسامة كادت تفضح سريرة قلبها، وهمست: "وقح."

رد ببريقٍ آسر: "وأنتِ تعشقين هذه الوقاحة."

سحبوه بعيداً. صعد إلى تلك العربة الحديدية الموحشة، وقبل أن يُغلق الباب، رفع يديه المقيدتين عالياً ولوّح لها.. لوّح بالحديد الذي يربطه، لكن روحه كانت ترفرف حولها. بقيت واقفة هناك، مصلوبة في مكانها، تلوّح له بابتسامة مهزوزة ودمعة واحدة تحجرت في زاوية عينها، حتى ابتلع الزحامُ السيارة تماماً.

المشهد الثاني: سكون ما قبل العاصفة

عادت إلى قصر "والكر" عند العصر، حيث تتراص الأشجار كجنودٍ صامتين. جلست في الحديقة مع عائلتها، وسط صخب إخوتها وتلاسنهم المعتاد حول مباريات الكرة. كان والدها، ويليام والكر، يرمقها بنظراتٍ كالسكاكين، يحاول اختراق أسوار صمتها، وقراءة التغيير الجذري في حدقتيها.

كانت هادئة هدوءاً غريباً، هدوءاً مخيفاً. كانت تضحك معهم، وتمرر النكات، لكنها في الحقيقة كانت مسكونة بصوت ليو، تعدّ الثواني والدقائق كأنها تقيس نبض حياتها القادمة.

المشهد الثالث: طريق الوجد.. وصرخة في العراء

مع احتراق قرص الشمس وتوشح السماء باللون البرتقالي الدامي، انطلقت بسيارتها. كان المقعد الخلفي ينوء بحملٍ من نوع خاص؛ أكياس تعج بروائح القهوة المحمصة، وفواكه طازجة، وهدايا مغلفة بالحب والامتنان. كانت وجهتها بوصلة قلبها: منزل عائلة ليو.

شقّت السيارة الطريق المحاط بالأشجار الكثيفة التي بدت كأنها تحرس سرها. شغلت الراديو، فانسابت ألحان Ruelle لتملأ قمرة السيارة بجوٍ ملحمي. انبعثت أغنية "War of Hearts"، فاهتز كيان لونا. رفعت الصوت ليعانق عنان السماء، وبدأت تغني بكيانها كله:

"Shadows creep.. and want grows stronger.. deeper than the truth."

كانت تضرب المقود بإيقاعٍ راقص، والضحكة تخرج من أعماقها صافية لأول مرة منذ دهر. فجأة، وباندفاعٍ جنوني، ركنت السيارة على جانب الطريق وسط الغابات الساكنة. فتحت النافذة، وأخرجت رأسها للهواء الطلق، واستجمعت كل ذرات الأكسجين في صدرها وصرخت بملء في حنجرتها:

"أحبك يا ليوووو! أحبك أكثر مما أحتمل!"

تردد صدى صوتها بين الأشجار، فضحكت كطفلة نالت حريتها للتو، ثم أغمضت عينيها وهي تهمس لنفسها: "أشتاق إليك، وأنت لم تغادر خيالي لثانية واحدة."

المشهد الرابع: في محراب العائلة

وصلت إلى منزل عائلة ليو مع هبوط ستار الليل. كان البيت ينضح بدفءٍ منزلي حميمي، وأضواء المصابيح الصفراء ترسم ظلالاً مريحة على الجدران.

طرقت الباب، لتستقبلها إليزابيث بشهقة ذهول وهي ترى كم الأكياس: "يا إلهي! لونا؟ ما كل هذا؟"

ردت لونا وهي تدخل مرحة: "اعتبريه غزوًا سلمياً لمطبخكم!"

في الداخل، كان والد ليو يجلس بوقار الأنبياء، فتبسم حين رآها وقال بلهجةٍ أبويّة مازحة: "آه.. إذن أنتِ هي! كنتِ السبب في أن تدبّ الحياة في جدراننا الصامتة من جديد."

وُضعت القهوة، وجلست لونا بينهم، ولم تشعر للحظة أنها غريبة؛ بل شعرت بأنها قطعة مفقودة من هذه الأحجية العائلية. قالت بهدوء، والعيون معلقة بشفتيها: "لقد وجدتُ ليو.. هو بخير، أقسم لكم، إنه بخير وقوي جداً."

ارتجفت يد إليزابيث، وسألت بصوت مخنوق: "رأيته حقاً؟"

"نعم، وهو صامد كما عهدتموه،" أجابت لونا بيقين، وأضافت بلهجة تحمل ثقل الوعد: "وقريباً جداً.. سأجعلكم تعانقونه."

لم تنطق بكلمة "سجن"، لم تلوث طهر اللحظة بقسوة الواقع، بل منحتهم "الأمل" صافياً بلا شوائب.

سألتها إليزابيث بفضولٍ محب: "من أنتِ يا لونا؟ من تكون تلك الفتاة التي قلبت حياة ابننا؟"

ابتسمت لونا بخجل، وسردت لهم عن عائلتها، عن القصر البارد، عن إخوتها، وعن والدها الذي يقدس القانون أكثر من المشاعر. وفي تلك الليلة، بين ضحكاتهم وقصص طفولة ليو المحرجة، أدركت لونا حقيقة مذهلة: هي لم تكن تزور عائلة حبيبها.. كانت تعود لبيتها الذي لطالما بحثت عنه في تيه قصر "والكر".

الفصل السابع والعشرون: برزخ الزجاج.. والسر المكتوم

المشهد الأول: روتين الرماد

كان صباح السجن رمادياً كئيباً، يلف البناية بغلالة من الثقل، كأن السماء نفسها قد استسلمت لزيّ الحراسة الرسمي. تقدمت لونا نحو البوابة الرئيسية، تقبض على بطاقة الزيارة كأنها تذكرة عبور نحو الحياة.

رمقها الحارس بنظرة تآلف معها من كثرة حضورها، وقال بلكنة فاترة: "عدتِ مجدداً؟"

رسمت على شفتيها ابتسامة واثقة تتحدى قتامة المكان: "وهل ظننتم أنكم ستتخلصون مني بهذه السهولة؟"

هز الحارس رأسه بيأسٍ صامت، وفتح لها الطريق نحو الداخل.

المشهد الثاني: خلف جدار الجليد

في غرفة المواجهة، كان ليو ينتظر خلف لوح زجاجي سميك؛ حاجز شفاف لكنه أقسى من الجبال. كان يرتدي بدلة السجن الرمادية، وشعره قد قُصّ قليلاً ليبرز حدة ملامحه، لكن ابتسامته ظلت هي الملاذ الوحيد وسط هذا الانهيار.

ما إن وقع بصره عليها، حتى وضع كفه على الزجاج بلهفة مكتومة. رفعت يدها لتقابل كفه؛ تشابكت الأيدي عبر البرودة الشفافة، وتحدثت العيون بلغة لم تحتج لشرح.

رفعت سماعة الهاتف، وقالت بصوت يمزج بين الشوق والمزاح: "صباح الخير، أيها المجرم الذي سلبني راحتي."

ضحك ليو بخفة أضاءت وجهه المتعب: "صباح الخير، يا فتاة النوافذ المتسللة."

"ما زلتُ مقتنعة أن قفزتي كانت تصلح لمشهد بطولي في فيلم سينمائي،" ردت بزهو.

"بل كانت كارثة،" قال ليو ضاحكاً، "الحارس في الجناح الطبي لا يزال يبحث عن 'قطة بشرية' شوهدت تهيم في الممرات."

رفعت حاجبها بتحدٍ: "إن أفشيتَ سري، سأخبر الجميع أنك تتحدث في نومك بهذيان مضحك."

"أنا أفعل ذلك فعلاً،" اعترف ليو وهو ينحني للأمام، ثم خفتت ضحكته لتفسح المجال لنبرة عميقة: "اشتقتُ إليكِ.. جداً."

استقرت لونا في صمتها للحظة، قبل أن تهمس بصدقٍ جارح: "وأنا.. اشتقت إليك أكثر مما يتسع له هذا المكان."

المشهد الثالث: شظايا الذاكرة

بينما كان ليو يضيق عينيه بمكر، سأل: "أخبريني، هل جئتِ بطعامٍ حقيقي هذه المرة، أم تنوين بعثرته على الأرض كالعادة؟"

شهقت لونا بصدمة مصطنعة: "يا للوقاحة! أنت من أطاح بوعاء الحساء، أتذكر؟"

"كنتُ تحت تأثير التخدير يا لونا،" دافع عن نفسه.

ردت بضحكة رقيقة: "بل كنتَ تحت تأثير الغباء الفطري."

ساد جو من المرح، لكن الحراس بدأوا يرمقون ضحك ليو المرتفع بنظرات ريبة. خفض ليو صوته وقال: "لو رأوني هكذا لفقدتُ سمعتي بين السجناء."

"أي سمعة؟ سمعة البطل الذي يحمي الجميع؟"

ابتسم بفخر هادئ: "على الأقل، أعيش بمبدأ."

أجابت وهي تنظر في عينيه بعمق: "وأنا.. أعيش بك."

المشهد الرابع: الحقيقة والندوب

تنهدت لونا، وسكنت ملامحها وهي تسأل السؤال الثقيل: "متى موعد المحاكمة؟"

انقبضت ملامح ليو: "لا موعد محدداً بعد. المحامي يتحدث عن أسابيع من الإجراءات العقيمة."

رغم الضيق الذي اعتصر قلبها، قالت بثبات: "سننتظر.. مهما طال الوقت."

صمت ليو للحظة، ثم سأل بنبرة جادة اخترقت هدوء الغرفة: "أخبريني.. ماذا حدث حقاً في ذلك اليوم؟ اليوم الذي سلمني فيه والدكِ للقانون؟"

ارتجفت أصابعها حول الهاتف، وابتلعت غصة مريرة وهي تروي له الحكاية للمرة الأولى بوضوح: "أقسم لك، لم يكن لي علم. سمعتُ الأمر مصادفة بينه وبين أختي.. وحين عرفت، انحنت روحي انكساراً."

أطالت النظر إلى الأرض قبل أن ترفع عينيها المغرورقتين وتكمل: "لم أكن أعلم أنه سيفعل بي هذا.. كنتُ غارقة في عملٍ مهم، حتى هاتفني أخي ليخبرني أن حريقاً هائلاً التهم مزرعتي.. مزرعتي التي كانت ملاذنا. احترقت بالكامل، وظننتُ لثوانٍ أنك احترقت معها."

صُدم ليو، واتسعت عيناه: "المزرعة؟! احترقت حقاً؟ لا أصدق.."

تنهد بعمق، واختفت من عينيه بقايا الشك، وقال بهدوء وثقة: "كنتُ أعلم يقيناً أنكِ لن تفعليها.. كنتُ أعرف."

المشهد الخامس: الهروب من المواجهة

حاول ليو تغيير الأجواء الثقيلة، فمال برأسه وسأل: "وماذا عن تلك المفاجأة؟ قلتِ إنكِ تخبئين شيئاً."

تصلب جسد لونا، وتلعثمت الكلمات في حنجرتها. ابتسمت بمرارة مرتبكة: "آه.. المفاجأة.. كنتُ أفكر فقط.. أنه حين تخرج، ربما نسافر بعيداً.. نبدأ من جديد."

رمقها ليو بنظرة فاحصة، وكأنه يقرأ ما خلف جبهتها: "هذا ليس ما كنتِ تودين قوله يا لونا. لستِ ماهرة في الكذب."

ضحكت بتوتر وهي تفرك كفيها: "أفكاري متشابكة هذه الأيام، أنت تعرفني."

"لونا،" نادى اسمها بجدية صارمة، "ماذا تخفين؟"

قبل أن تنطق بحرف، طرقت قبضة الحارس الزجاج بقسوة: "انتهى الوقت. اتركوا الهواتف."

"لا، لحظة واحدة!" صرخت لونا، بينما قال ليو بسرعة: "أكملي ما بدأتِ!"

نهضت لونا بسرعة، وهي تشعر أن الحقيقة تود القفز من شفتيها: "يجب أن أرحل الآن."

"لونا! لا تفعلي هذا!" ناداها بقلق وهو يرى اضطرابها.

"سأخبرك في الزيارة القادمة، أعدك!" قالتها وهي تبتعد خطوة نحو الباب.

كانت عيناه تلاحقها بلهفة وقلق، وسمعته يهمس عبر الجهاز قبل أن تضعه: "لا تهربي مني."

التفتت له التفاتة أخيرة، وهمست بصوت لم يسمعه إلا قلبها: "لن أهرب.. فقط انتظر المفاجأة الحقيقية."

خرجت من السجن والريح تلطم وجهها، وقلبها يقرع كطبل حرب، تخشى أنها لو بقيت ثانية واحدة أخرى، لانهارت وأخبرته أن عائلته الآن.. تحت جناحها

الفصل الثامن والعشرون: لم شتات الروح.. وميلاد "ليو" الجديد

المشهد الأول: فجر الانعتاق

مرّ أسبوع كامل، كان بمثابة الهدوء الذي يسبق أجمل العواصف.

وفي ذلك الصباح، استيقظت لونا بقلبٍ خافق، كفراشة نفضت عنها غبار الشرنقة لتواجه الضياء. نهضت والسر يملأ صدرها بالدفء، ارتدت مئزرها الأبيض، وربطت خصلات شعرها بعفوية زادتها سحراً، ثم انطلقت نحو المطبخ كأنها تخوض معركة حب.

بعد نصف ساعة، تحولت طاولة الحديقة في قصر "والكر" إلى لوحة فنية؛ فطائر تفوح منها رائحة الحنين، عصائر بلون الشمس، وقهوة يرقص بخارها في الهواء البارد، بينما توسطت مائدتها زهور صغيرة نديّة.

نزل إخوتها، فتسمرت أقدامهم عند عتبة الحديقة. تبادلوا نظرات حائرة، وقال أحدهم بذهول: "هل أخطأنا العنوان؟ أم أن الطباخة استقالت وحلت محلها ملاك؟"

ظهرت لونا حاملةً إبريق القهوة، ووجهها يشع بنورٍ غريب: "صباح الخير يا رفاق!"

"القاضية في المطبخ؟" تمتم أخوها بصدمة، "هل قامت القيامة ونحن نائمون؟"

انطلقت ضحكتها مجلجلة، صافية، وعميقة، ضحكة افتقدتها جدران القصر لأسابيع. جلس والدها "ويليام" يراقبها بصمت المهيب، وعيناه تقرآن خلف تلك الابتسامة نصراً لم يدرك كنهه بعد.

"ما المناسبة؟" سأل أخوها الأصغر بريبة.

"لا توجد مناسبة،" أجابت بخبث وهي تصب القهوة، ليرد الآخر بتمتمة: "هذا هو القلق بعينه.. الصمت قبل العاصفة."

دار الحديث بينهم بخفة ومزاح، وهي تكتفي بالابتسام، تخبئ في قلبها شمساً ستشرق بعد قليل.

المشهد الثاني: المرآة لا تكذب

عقب الإفطار، صعدت إلى غرفتها لتتمّ طقوس "اليوم العظيم". وقفت أمام المرآة، فستانها الأنيق ينساب عليها بنعومة، ومكياجها الخفيف يبرز بريق عينيها اللتين لا تنطفئان.

طُرق الباب، ودخل والدها. توقف عند الحافة، يتأمل تبدّل حالها.

"لم أركِ هكذا منذ دهر،" قالها بصوتٍ خفيض.

"هكذا كيف يا أبي؟"

"سعيدة.. كأنكِ استعدتِ روحكِ المفقودة."

دنا منها خطوة، وأردف: "أنتِ جميلة دوماً، لكن اليوم.. فيكِ نورٌ ليس من هذا العالم."

نظرت إليه بثباتٍ لا يتزعزع: "لأنني أخيرًا، ولأول مرة، أفعل ما يمليه عليّ قلبي دون خوف."

ابتسم ويليام بفخرٍ دفين، وهمس: "كوني قوية."

"أنا كذلك،" ردت بيقين، ثم حملت حقيبتها وغادرت القصر بخطواتٍ واثقة.

المشهد الثالث: رحلة نحو المجهول

عند منزل عائلة "مولر"، طرقت الباب بلهفة. فتحت إليزابيث، ففوجئت بلونا أمامها بهيئتها الرسمية المشرقة.

"لونا؟ ماذا يحدث؟"

"يجب أن تأتيا معي الآن.. فوراً."

"إلى أين؟" تساءل الأب الذي ظهر خلف زوجته.

"مفاجأة.. رجاءً، ضعوا ثقتكم بي هذه المرة."

انطلقت بهم السيارة، والأسئلة تنهال عليها كالمطر: "إلى أين نذهب؟ لونا، هذا الطريق غريب.. لماذا نحن هنا؟"

ظلت صامتة، حتى توقفت السيارة أمام الأسوار العالية.. أمام السجن.

تصلبت إليزابيث في مقعدها، وارتجفت يد الأب: "لماذا السجن يا لونا؟"

التفتت إليهما، وعيناها تفيضان بدموع الفرح: "لأنكم اليوم.. ستستعيدون ابنكم."

المشهد الرابع: الزلزال

دخلوا القاعة، والانتظار كان ينهش الصدور. فُتح الباب الداخلي، وظهر ليو. كان يمشي بشموخٍ لم تكسره القيود، عضلاته مشدودة تحت زي السجن، ونظرته صلبة كالصخر.

اندفعت لونا نحوه، وارتمت في حضنه بقوة. همس في أذنها بلهجة غيورة عابثة: "عطركِ يفتن الحجر.. لا تضعيه مجدداً، إنه لي وحده."

ضحكت بخفوت: "وضعته لأجلك، ولأجل هذا اليوم."

انسحبت لونا ليفسح المكان للقدر. نظر ليو إلى الرجل والمرأة اللذين يقفان أمامه بصمتٍ جنائزي، وعيونهما تلتهمان ملامحه بصدمة.

"ليو.. هؤلاء هم.." تعثرت الكلمات في حنجرة لونا، فنظر ليو إليهم مبتسماً: "نعم؟ من ضيوفنا الكرام؟"

ابتلعت لونا غصتها، وقالت بوضوحٍ هزّ أركان المكان: "ليو.. إنهم والداك."

توقف نبض الزمان. ليو تسمر في مكانه، والإنكار يصرخ في رأسه: "ماذا؟"

لم تحتمل إليزابيث، فانفجرت في بكاءٍ يمزق نياط القلب: "ليو.. ابني الضائع!"

تراجع ليو خطوة، والارتباك يغزو ملامحه الصلبة، بينما أخرج الأب من جيبه صورتين قديمتين، مهترئتين بفعل الزمن والدموع. صورة لطفل أشقر يداعب كرة، وأخرى في حضن أمه.

"خُطفت منا قبل سنين طويلة،" قال الأب بصوتٍ مكسور، "طرقنا كل أبواب الدنيا، لكن الفقر كان جداراً أصمّ.. لم نملك نفوذاً ولا مالاً لنرشي الضباط، لم نملك سوى دعواتنا في أنصاف الليالي."

أخذ ليو الصور بيدين ترتجفان كغصنٍ في عاصفة. نظر إلى الطفل.. إلى العينين.. إلى نفسه. انهار سد الإنكار، واقتحمته الحقيقة كزلزال. صرخت الأم وهي تحتضنه بجنون: "ابني.. رائحتك لم تتغير، إنها هي!"

انهار ليو.. البطل الصلب، السجين القوي، انهار كطفلٍ عاد لحضن أمه بعد قرون من التيه. بكى بحرقة وهو يقبل رأسها ويشد والده إلى صدره: "أمي.. أبي.. أخيراً نطقتُها."

المشهد الأخير: صلاة السلام

وقفت لونا بعيداً، تراقب هذا المشهد الأسطوري ودموعها تنهمر بصمتٍ مقدس.

اقتربت الأم منها، وأمسكت يدها وهي تنتحب: "هي من وجدتك يا ليو.. هي من رعتنا وأعادت لنا الروح.. لولاها لبقينا أمواتاً على قيد الحياة."

نظر ليو إلى لونا، اقترب منها والدموع لا تزال عالقة في أهدابه، أمسك وجهها بين يديه كأنه يمسك أغلى ما في الكون، وقال بنبرة هزت كيانها:

"أنتِ.. لستِ مجرد امرأة، أنتِ دعوة استجابتها السماء في أشد ساعاتي ظلمة."

"لم أفعل شيئاً،" همست بتواضع، ليرد بيقين: "بل فعلتِ كل شيء.. هذا المعروف طوقٌ في عنقي ما حييت."

جلس بينهم، يمسك يد أمه بيد، ويد لونا بالأخرى، وقال بعمقٍ وسكينة:

"الآن.. حتى لو وافاني الأجل، لا يهم.. لقد عدتُ لأهلي، وفزتُ بحبيبتي.. وهذه نعمة تتقزم أمامها كل الجروح."

ساد الصمت في قاعة الزيارات، لكنه لم يكن صمت السجون الموحش، بل كان صمتاً مليئاً بالسلام، صمتاً يقول إن الحكاية قد بدأت الآن فقط.

الفصل التاسع والعشرون: ميزان الدموع.. وحكم القدر

المشهد الأول: صخب خارجي.. وفراغ موحش

كانت الليلة تتلألأ بالأضواء، احتفاءً بعيد ميلاد أختها كاثرين، الحديقة غارقة في سلاسل النور الذهبية التي تتمايل مع أنغام الموسيقى، والضحكات تتعالى لتملأ فضاء قصر "والكر". كان بين يحاول عبثاً انتشال لونا من غرقها، داعياً إياها للرقص: "هيا يا لونا، دقيقة واحدة لن تضر!"

ابتسمت لونا بآلية مجردة، كانت شفتيها تضحكان، أما عيناها فكانتا مسافرتين خلف قضبان بعيدة، تبحثان عن طيفٍ يسكن زنزانةً باردة. سألتها أختها بمزاح: "أين سافر عقلكِ الليلة؟"

أجابت لونا بصدقٍ مرّ لم يدركه أحد: "في السجن."

تعالت الضحكات ظناً منهم أنها تداعبهم، لكنها كانت تتنفس وجع الحقيقة. تسللت بهدوء من وسط الضجيج، باحثةً عن صمت مكتبها.

المشهد الثاني: فخ "الحماية" الأبوي

بينما كانت لونا تراجع ملفات الغد، لم تكن تعلم أن والدها "ويليام" قد نصب لها فخاً تحت مسمى "الحماية". بنفوذه الطاغي، حرّك خيوط القضاء ليضمن أن تقع قضية ليو بين يدي ابنته؛ ظناً منه أنه يمنحها سلطة إعدامه ، لكنه وضع نصل المقصلة على عنق حبهما.

دخلت غرفتها، وأغلقت الباب على ذكرياتٍ تنهش روحها؛ ليلة التسلل، ورائحة العطر، وضحكته المنكسرة خلف الزجاج. غسلت وجهها بالماء البارد، ونظرت للمرآة بصرامة القضاة: "سأكون قوية لأجلك."

عادت للملفات، لتتوقف عند اسم غريب: (رافاييل مولر). قلبت الصفحات؛ لا صورة، لا بيانات واضحة، فقط تهمة شجار عنيف داخل محبس. تمتمت: "مولر؟ هل هو مجرد تشابه أسماء؟"

لم تكن تعلم أن "ليو" هو الاسم الذي احتفظ به قلبه، أما "رافاييل" فهو الاسم الذي منحه إياه الخاطف "جاكوب" لمحو هويته، وأن لقبه الحقيقي هو "مارتينيز". أغلقت الملف بلامبالاة قائلة: "مجرد مصادفة."

المشهد الثالث: صباح المواجهة

في الصباح، كان والدها ينتظرها عند النافذة. قال بنبرة غامضة: "أردتُ وداعكِ فقط."

ردت بمزاجٍ باهت: "كأنني ذاهبة إلى جبهة قتال."

تأملها ويليام وفي داخله صرخة مكتومة: "أنا أفعل هذا لتكوني أنتِ من يقرر مصيره.. سامحيني." اكتفى بقول: "بالتوفيق."

المشهد الرابع: الصدمة تحت الرداء الأسود

دخلت لونا القاعة بوقارها المعهود، يلفها رداء القضاء الأسود بهيبته الثقيلة. جلست في منصة الحكم، وأعطت الإشارة ببدء الإجراءات: "أدخلوا المتهم."

فُتح الباب الجانبي، ودخل.. هو.

ليو.

مكبل اليدين، لكن رأسه مرفوع بعزة لا تنكسر. رفعت لونا عينيها، فتجمدت الدماء في عروقها. سقط القلم من يدها ليرنّ فوق الرخام رنيناً شق سكون القاعة.

رفع ليو نظره، لتصطدم عيناه بعينيها. همس بذهول يكاد لا يُسمع: "لونا.."

شيءٌ ما تحطم في نظراته. ردت هي بهمسٍ مخنوق: "ليو.."

مالت نحو المساعد بذعر: "لا أستطيع.. يجب نقل القضية فوراً."

رد المساعد بصرامة قانونية باردة: "سيادة القاضية، تمالكي نفسكِ. تنحي القاضي الآن سيُسجل كمخالفة جسيمة، وحتى لو انسحبتِ، سيحكم غيركِ ببطشٍ أكبر. أكملي الجلسة."

أغمضت عينيها، تستجمع شتات نفسها المحطمة، ثم نطقت بآلية مرعبة: "تُفتَح الجلسة."

المشهد الخامس: مرافعة بين حدّين

انطلقت المرافعة. استند الدفاع إلى المادة 52 من قانون العقوبات الإيطالي (Codice\ Penale)، مدافعاً بحالة "الدفاع الشرعي" عن سجينٍ ضعيف. بينما هاجمت النيابة بموجب المادة 582، معتبرةً أن استخدام أداة حادة طعنة في قلب النظام العام.

كانت لونا تسمع، لكنها لا تبصر سوى وجه ليو. تسمع تقارير الأطباء ووصف الجروح، وتشعر بكل كلمة كأنها طعنة في جسدها هي.

المشهد السادس: منطوق الحكم القاتل

وقفت لونا، وخيم صمتٌ رهيب على القاعة، صمتٌ يمكن سماع دقات القلوب فيه. بدأت تتلو الديباجة الرسمية بصوتٍ مهتز يحاول الاستناد إلى هيبة الدولة:

"باسم الشعب الإيطالي (In nome del Popolo Italiano).. وبعد الاطلاع على الأوراق وسماع الشهود، وحيث ثبت يقينًا أن المتهم رافاييل مولر قد أحدث إصابة عمدية، وحيث إن شروط الدفاع الشرعي لم تتناسب مع حجم الاعتداء.."

توقف صوتها. اختنقت الكلمات في حنجرتها وهي تنظر إلى ليو الذي لم يرفع عينه عنها. غشيت الدموع رؤيتها، لكنها منعت سقوطها بكبرياءٍ قائل:

"حكمت المحكمة حضورياً بمعاقبة المتهم (رافاييل مولر).. بالسجن لمدة سبع سنوات."

سقطت الكلمات كالمطارق فوق رؤوس الجميع. ساد صمتٌ جنائزي. ليو لم يتحرك، لم يصرخ، لم يعترض. فقط نظر إليها بنظرةٍ كسرت كل حصونها؛ نظرة لم تحمل غضباً، بل حملت وجعاً أبدياً لا يداوى.

خانتها قوتها في الختام، فهمست بصوتٍ شرخَه الألم: "رُفعت الجلسة."

هكذا، في ليلة واحدة، جمع القدر الحبيبين تحت سقفٍ واحد.. لتكون هي الجلاد، ويكون هو الضحية.

الفصل الثلاثون: حطام القضاة.. ووداع الغرباء

المشهد الأول: استقالة من الحياة

لم تمنح لونا لنفسها فرصة للتنفس؛ فما إن سقطت مطرقة الحكم حتى هوت روحها في بئر سحيق. نزعت رداء القضاء الأسود بيدين ترتجفان كغصن في إعصار، ألقته فوق الطاولة كأنه كفن لآمالها، واندفعت خارج القاعة بخطوات تحرق الرخام من خلفها.

في الممرات المكتظة، حاول أحد الصحفيين اختراق حصونها: "قاضية والكر ! هل لنا بكلمة عن.."

"ابتعدوا عن طريقي!" صرخت، وكان صوتها مشحوناً بنارٍ كفيلة بإحراق القصر والعدالة معاً.

دخلت مكتبها، وبحبرٍ جاف لا يعرف الرحمة، خطت سطراً واحداً أنهى مسيرة سنوات: (أتقدم باستقالتي من منصبي، نافذة فوراً). وضعت القلم، ولم تلتفت خلفها؛ فقد تركت هناك كل شيء: مهنتها، طموحها، ويقينها بالعالم.

المشهد الثاني: المواجهة الكبرى

اقتحمت القصر كعاصفة سوداء، صراخها يسبق خطواتها: "أين هو؟! أين ذاك الذي يدّعي حمايتي؟!"

خرج "ويليام والكر" من مكتبه بهدوءٍ جنائزي، واجه شحوب وجهها وعينيها اللتين غسلتهما الدماء والدموع.

"لونا.." بدأ بالحديث، لكنها قاطعته بصوتٍ حاد كالسكين: "أنت من نسجت هذه المؤامرة الدنيئة؟ أنت من جعلتني الجلاد والضحية في آنٍ واحد؟ أنت من دفعتني لأدفن قلبي بيدي تحت بند القانون؟!"

لم ينكر ويليام، ولم ترفّ له جفن، بل قال ببرودٍ يخفي خلفه غصة: "فعلتُ ما يمليه عليّ واجبي كأب."

ضحكت لونا ضحكة مكسورة، ضحكة تشبه تهشم الزجاج: "واجبك؟! أن تضعني في مواجهة الرجل الذي أتنفسه، لأحكم عليه بالسجن عشر سنوات؟ كنت تعلم منذ البداية!"

همس بمرارة: "أردتُ أن تري حقيقته بعينيك، لا بعاطفتك."

"أي حقيقة؟!" صرخت، ثم خانتها قواها فجأة، وسقطت على ركبتيها وسط الردهة الكبيرة. انهارت لونا تماماً، وانفجرت في نحيبٍ لم يعرفه القصر من قبل. احتضنتها أمها، حاولت رفعها عن الأرض الموحشة وهي تهمس: "اهدئي يا ابنتي.."

بقي ويليام واقفاً كتمثال صخري، ملامحه متصلبة وعيناه تلمعان بدموعٍ حبسها بكبرياء. كان يهمس في أعماق روحه: "لقد أنقذتكِ من دمارٍ محتم.. حتى لو كرهتِني للأبد."

المشهد الثالث: زنزانة اختيارية

استحالت غرفتها إلى زنزانة اختيارية في الأيام التالية. ستائر مسدلة تحجب ضياء الصباح، وهاتف منبوذ في الزاوية، وصمت طويل يقطعه أحياناً دخول "بين".

كان بين هو النافذة الوحيدة المتبقية لها على العالم. يجلس قربها، يحاول استجماع ذكريات الماضي الجميل: "أتذكرين يوم اختبأتِ تحت سرير المستشفى؟ كنتِ أشجع من عرفت."

لكن لونا لم تكن هناك؛ كانت تحدق في الفراغ، وحين يقول لها بين: "هو لا يكرهكِ يا لونا، إنه يفهم"، تغمض عينيها بألم وتهمس: "لكنني أكره نفسي.. وهذا يكفي."

المشهد الرابع: رحيل "مارتينيز" الكبير

لم يكد جرح الحكم يندمل حتى جاءت الطعنة الكبرى. اتصال هاتفي من إليزابيث غرق في العويل: "والد ليو.. لم يحتمل يا لونا. قلبه توقف."

رحل الرجل الذي وجد ابنه للتو، رحل دون أن يشبع من رائحته، ودون أن يراه حراً.

المشهد الخامس: جنازة تحت قيود الحديد

كانت السماء رمادية، كأنها تعلن الحداد الرسمي على عائلة "مارتينيز". في المقبرة، وبينما كان التابوت يتوسط المشهد، وصلت سيارة الشرطة المصفحة.

نزل ليو. لم يكن "ليو" الذي تعرفه؛ كان شاحباً كالموت، مكبلاً من معصميه وقدميه، محاطاً بحراسٍ لا قلوب لهم. اقترب من التابوت بخطواتٍ مثقلة بالحديد والقهر. انهار عند حافة الخشب، وصرخ بصوتٍ مزق سكون الموت: "أبي! كنتُ سأعود إليك.. أقسم أنني كنتُ سأفي بوعدي!"

سقطت دموعه بحرقة على خشب التابوت، حاول لمسه، لكن القيود اللعينة منعته، وكأنها تذكره حتى في موته أبيه بأنه "مجرم". في تلك اللحظة، كانت لونا تقف على مسافة منه، نحيلة، باهتة، كأنها شبح لامرأة كانت يوماً قاضية.

التقت نظراتهما. لم يبتسم ليو هذه المرة، ولم يشتعل غضباً. كان في عينيه فراغٌ مخيف، هوّة سحيقة ابتلعت كل الذكريات الجميلة. اقتربت لونا خطوة، وهمست بشفتين مرتعشتين: "أنا آسفة.."

لم يحرّك ساكناً، ولم يمنحها حتى إيماءة غفران. عاد لينظر إلى التابوت بنظرة الوداع الأخير قبل أن يشد الحراس قيوده بقسوة: "انتهى الوقت، تحرك!"

سحبوه بعيداً، وجسده يرتجف بوقع السلاسل. لم يلتفت خلفه أبداً.

بقيت لونا واقفة وسط المقبرة، تشاهد رحيل الرجلين: أحدهما إلى باطن الأرض، والآخر إلى ظلام السجون.. وشعرت في تلك اللحظة أن العالم كله قد انهار، وأنها تقف وحيدة فوق الأنقاض.

الفصل الحادي والثلاثون: رماد المنصب.. وجمر الوفاء

المشهد الأول: جدار الصد الموحش

مرّت الأيام ثقيلة كأنها دهور، والفراغ الذي خلّفته الجنازة صار أوسع من زنزانة ليو، وأبرد من جدران السجن الأسمنتية. ذهبت لونا في زيارتها الأولى، يجرها حنين لا يرحم، وقفت أمام مكتب الاستقبال وطلبت رؤيته.

انتظرت والوقت يمرّ على أعصابها كالمشرط، حتى عاد الحارس بنظرة تحمل شفقة متحفظة: "إنه يرفض الزيارة."

تجمدت الدماء في عروقها، وقالت بصوت مكسور: "أخبره أنني لونا.. أخبره أنني هنا."

رد الحارس ببرود: "لقد فعلنا.. لكنه أصرّ على الرفض."

خرجت تجرّ أذيال الخيبة، وشعرت كأن الأرض تميد بها، لكنها لم تبكِ؛ فالحزن الحقيقي قد جفف منابع دمعها. همست لنفسها وهي تغادر: "سأعود.. لن أتركك لظلامك."

المشهد الثاني: نزع القناع

عادت بعد مدة، لكنها لم تعد "القاضية روسّي" بهيبتها وروبها الأسود، بل جاءت "لونا" بضعفها وقوتها، بثوب بسيط وعينين لم يعد فيهما مكان للزيف.

قالت للحارس بلهجة ملكت فيها صدق الدنيا: "أنا لستُ هنا بصفتي الرسمية.. أنا هنا كأنثى لا تتنفس إلا بوجوده."

دُعيت للدخول، وجلس أمامها خلف الحاجز البارد. طال صمته وهو يتفرس في ملامحها الذابلة. "لماذا عدتِ يا لونا؟" سأل بنبرة منهكة.

أجابت بهدوء صلب: "لأنني لم أعد أطيق تقمص أدوار لا تشبهني. لقد خلعتُ عني كل الألقاب.. خسرتُ منصبي، وقد يضيع مستقبلي المهني هباءً، لكنني أدركت أن العالم كله لا يساوي شيئاً إن خسرتك."

رفع عينيه نحوها، وكان عتبه حاداً: "لقد حكمتِ عليّ بالسجن يا لونا.. بيدكِ هذه."

اقتربت من الزجاج، وضعت كفيها مقابلة لكفيه: "حكمتُ بمقتضى العدل الذي أقسمتُ عليه، لكن قلبي لم يكن يوماً خصماً لك. لقد كنتُ أحاكم روحي وأنا أنطق بالحكم."

ساد صمت عميق، قبل أن يلين صوته: "ميزان العدالة لا يميل.. وأنا أخطأت، وعليّ دفع الثمن." نظر إليها بامتنان دافئ: "ربما هذه السنوات خلف القضبان هي مخاضي الجديد.. لأتوقف عن الهروب من حقيقتي."

ردت بشفتين مرتعشتين: "وسأنتظرك.. سنة، عشراً، أو عمري كله.. لستُ مستعجلة على حياة لستَ أنت مركزها."

المشهد الثالث: غيرة خلف القضبان

شدّت على يده عبر الحاجز وهمست: "أعشقك.. ولن أكون لغيرك."

تغيرت نظراته، واشتعلت في عينيه غيرة فطرية لم تطفئها الزنزانة: "لا تقوليها بصوتٍ عالٍ هكذا.. أخاف أن يشاركني العالم في سماعها."

ابتسمت وسط دموعها: "فليسمعوا.. فليشهد الجميع."

دنا منها أكثر، وقال بصوت رخيم مشحون بالعاطفة: "أغار عليكِ من نسمة الهواء.. وإن تجرأ أحد على النظر إليكِ كما أفعل، سأحرق الدنيا من خلف هذه القضبان."

ضحكت بمرارة وعذوبة: "مجنون.."

فأجاب بصدق جارح: "بل مهووس بكِ."

قبل أن تنتهي الزيارة، قال فجأة: "في المرة القادمة.. أحضري أمي معكِ."

تهللت أساريرها: "ستراها حقاً؟"

أومأ برأسه: "أحتاج لبركتها.. وأريدها أن ترى أنني ما زلت صامداً بفضلكِ."

المشهد الرابع: الورقة المهربة

عادت لونا بعد أيام وبرفقتها إليزابيث التي كانت ترتجف شوقاً. حين وقع بصر ليو على أمه، تلاشت قسوة السجن من وجهه، صار طفلاً من جديد. "أمي.."

جلس ينهل من حنانها، يتحدثان عن ذكريات الطفولة البعيدة، وعن رائحة الخبز في بيتهم القديم. بكت الأم وهي تمسح غبار السجن عن وجه ابنه، بينما بقيت لونا في ركن الغرفة، تبتسم بوجع نبيل.

وعندما حان وقت الوداع، واقترب الحارس لينهي اللقاء، احتضن ليو أمه بقوة، وفي غفلة من الأعين، انسلّت يده بحركة خاطفة لتضع ورقة صغيرة مطوية في جيب معطفها.

المشهد الخامس: السر المقدس

في هدوء منزلها، جلست إليزابيث وحدها بقلب يخفق. أخرجت الورقة وفتحتها بيدين مرتعشتين، لتقرأ كلمات ليو التي كتبت بمداد الروح.

"أمي.. ابتاعي لي خاتم خطوبة بسيطاً، يليق بنقاء قلبها. في المرة القادمة، أحضري إخوتي جميعاً، ولتكن لونا هي من تقودكم إليّ. سأطلب يدها أمامكم وأمام العالم.. سأجعلها ملكي رسمياً حتى لو كنتُ خلف ألف قضبان."

انهمرت دموع إليزابيث، لكنها كانت دموع فرح أضاءت عتمة البيت.

وفي تلك اللحظة، كانت لونا تقف في شرفة منزلها، ترقب النجوم بسكينة، غير مدركة أن ليو، السجين والمحكوم، يخطط ليهديها أجمل قيد في الوجود.. قيد الحب الأبدي.

 الفصل الثاني والثلاثون: صرخة في الوادي.. وتراتيل العودة

المشهد الأول: اصطدام الأقدار

كان صباحاً عادياً في ظاهره، مثقلاً بالرسميات في باطنه.

مبانٍ حكومية باردة، اجتماعات مغلقة، وسيارة سوداء فاخرة تنساب في الطرقات كأنها تملك الوقت. لم يكن أحد يدرك أن ذلك المنعطف الضيق سيكون الحد الفاصل بين الوجود والعدم.

فجأة، فقدت شاحنة ضخمة سيطرتها، ودوّى صوت اصطدامٍ مريع هزّ أركان الشارع. زجاج يتطاير كالشظايا، وحديد يلتوي على بعضه كأجسادٍ تعاني سكرات الموت. وفي دقائق معدودة، انتشر الخبر كالنار في الهشيم:

"وفاة رئيس المحكمة العليا.. ويليام والكر، في حادث مرورٍ مأساوي."

المشهد الثاني: سكون الانفجار

سقط الهاتف من يد لونا، وارتطم بالأرض تماماً كما ارتطم الخبر بقلبها.

"لا..." خرجت الكلمة هامسة، واهنة، كأنها ترفض الاعتراف بوقوع الفاجعة.

تعالى صراخ والدتها في أرجاء القصر، وانهار إخوتها تحت وطأة الصدمة، أما لونا فبقيت واقفة في منتصف الردهة، ساكنة كتمثالٍ من ملح، كأن روحها قد غادرت جسدها لتشهد المأساة من بعيد.

ثم، وبدون سابق إنذار، انكسر ذاك الثبات الرخامي. سقطت على ركبتيها وهي تنتحب: "كنتُ غاضبة منه.. لم أعتذر، لم أقل وداعاً يليق به!"

انهمرت دموعها في انفجارٍ مكتوم، صرخة "أبي" التي خرجت من أعماقها كانت تحمل ندم الدنيا كله؛ ندم الكلمات الأخيرة التي كانت اتهاماً، واللقاء الأخير الذي انتهى بخصام.

المشهد الثالث: وداع تحت المجهر

كانت الجنازة مهيبة، تليق برجلٍ هزّت أحكامه أركان الدولة. شخصيات سياسية، قضاة بعباءاتهم السوداء، كاميرات تترصد الوجوه، وأكاليل زهور غطت مساحات شاسعة.

تحدث الخطباء عن نزاهته، عن سلطته التي لا تلين، وعن عدالته الصارمة. لكن لونا كانت صماء عن كل ذلك؛ كانت تحدق في التابوت بذهول، تشعر أن جزءاً من روحها يُدفن معه تحت التراب.

عاد الحزن إلى القصر كضباب كثيف لا ينجلي. اختفت الضحكات، وصار الليل دهراً من الصمت والوجع المكتوم خلف الأبواب المغلقة.

المشهد الرابع: رسول الحياة "بين"

بعد مرور شهر، اخترق سكون الصباح صوت موسيقى صاخب لم يعتده القصر. تزمير متواصل هزّ هدوء الحي الراقي. فتحت لونا النافذة بحدة لتجد "بين" يقف فوق سيارته، يرفع صوت المذياع بجرأة على أغنية Bon Jovi الشهيرة:

"It’s my life! It’s now or never!"

صرخ "بين" وهو يشير إليها بيده: "انزلي حالاً! كما أنتِ، لا تغيري شيئاً!"

وضعت لونا يدها على جبينها بقلة حيلة: "أنت مجنون، ستقتني يوماً ما."

رد بضحكة مستفزة: "انزلي قبل أن أبدأ الفقرة الغنائية التالية!"

نزلت لونا بشعرها المبعثر وثيابها المنزلية البسيطة. "إلى أين تأخذني؟" سألت بوجل.

"مهمة وطنية مقدسة،" أجاب بجدية مصطنعة.

"بين، لست في مزاج..."

"آيس كريم يا لونا. اصعدي!"

"أنا في حداد!" احتجت، ليرد وهو يفتح لها الباب: "وأنا طبيب نفسي متنقل لا يعترف بالأعذار. اصعدي."

المشهد الخامس: ضحكة وسط الرماد

جلسا على الرصيف، تماماً كغريبين لا يملكان من الدنيا سوى برودة المثلجات في أيديهما. سقطت قطرة على طرف أنفها، فضحك بين عالياً: "أين القاضية الوقورة الآن؟"

"اصمت وإلا لطخت قميصك بها!" هددت، وفعلت ذلك حقاً بلمحة بصر.

صرخ "بين" ضاحكاً: "أيتها الوحش!"

تعالت ضحكاتهما الصافية، ضحكة خرجت من القلب لأول مرة منذ رحيل والدها، كأنها غسلت بعضاً من سواد الحزن.

في طريق العودة، قال بين وهو يقود ب استرخاء: "تعلمين؟ أصبحتِ أقل رعباً بعد الاستقالة."

"وقح!"

"أقسم أنني كنت أخشى أن تحكمي عليّ بالأشغال الشاقة إن كسرتُ كوباً في منزلك."

ردت بخبث: "كنتُ سأفعل ذلك يقيناً."

انفجرا بالضحك مجدداً، ليعود الدفء إلى عروقها.

المشهد السادس: موعد مع النور

رنّ هاتفها، وكان اسم "إليزابيث" يضيء الشاشة.

"مساء الخير يا ابنتي.. كيف حالكِ؟" سألت الأم بحنان.

ابتسمت لونا بلطف: "أنا أفضل حالاً.. شكراً لسؤالك."

"هل يمكنكِ مرافقتنا بعد غد؟ نريد زيارة ليو."

تعلقت نظرات لونا بالأفق، وشعرت بوخزة شوقٍ لذيذة: "بالطبع، سأكون هناك."

أغلقت الهاتف، ليغمز لها "بين" بمكر: "هل كانت 'الحماة' المستقبلية؟"

ضربته على كتفه بخفة: "توقف عن هذا."

"أصبحتِ تتقنين دور الكنة ببراعة!" تابع ممعناً في إحراجها.

"سأرمي بك من السيارة!" هددت، ليرد بقهقهة: "أنا السائق يا ذكية!"

"إذن سأقفز أنا!"

"مثل قفزة المستشفى؟"

انفجرت ضاحكة وهي تتذكر جنونها القديم. نزلت أمام القصر، وقبل أن تدخل، رفعت رأسها نحو السماء. رغم ثقل الفقد ووجع اليتم، شعرت بأن خيوط الضوء بدأت تتسلل مجدداً إلى ثنايا روحها.

الفصل الثالث والثلاثون: ميثاقٌ خلف القضبان.. خاتمُ الشمس

المشهد الأول: موكبُ الأمل

بعد يومين من الوعد، كانت السيارة تشق طريقها نحو السجن، لكنها لم تكن تحمل هذه المرة مرارة الزيارات السابقة. لونا تجلس خلف المقود، ملامحها هادئة كبحرٍ استكان بعد عاصفة، وبجانبها إليزابيث التي كانت تفرك يديها بتوترٍ جميل، بينما في المقعد الخلفي، كان إخوة ليو يتبادلون همساتٍ حماسية، يملأون سكون السيارة بحيويةٍ افتقدتها لونا طويلاً.

نظرت إليزابيث نحو لونا بنظرةٍ أمومية دافئة، وسألتها بصوتٍ خفيض: "هل أنتِ متأكدة من هذه الخطوة يا ابنتي؟"

التفتت إليها لونا، وابتسامة رقيقة تترقرق على شفتيها: "أكثر من أي وقت مضى يا أمي.. قلبي لم يعد ملكي لأتردد."

المشهد الثاني: العريسُ السجين

في الداخل، كان ليو يعيش حالةً من الاستنفار العاطفي. صفف شعره بعناية، ارتدى قميصاً أبيض ناصعاً بدا كأنه قطعة من الحرية وسط الرماد، ورتب هندامه بهيئة عريسٍ ينتظر زفته. كان يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً، ونبضه يسبق خطواته.

حين انفتح الباب المعدني الثقيل، توقف الزمان.

دخلوا.. وكانت هي في المقدمة، كأنها الضوء الذي يطرد العتمة. لم يتمالك ليو نفسه؛ اندفع نحوها وعانقها عناقاً طويلاً كاد يسرق أنفاسها، عناقاً حمل فيه كل أوجاع الأسابيع الماضية.

همس في أذنها بنبرةٍ مثقلة بالصدق: "تعازيّ الحارة لروح والدك.. أنا آسف."

انحدرت دمعة ساخنة وحيدة على وجنتها، مسحتها بسرعة كأنها ترفض أن يلوث الحزن هذه اللحظة، وهمست: "شكراً لك."

التفت ليو نحو عائلته، احتضن أمه طويلاً كأنه يستمد منها بركة الأرض، ثم عانق إخوته واحداً تلو الآخر، يداعب رؤوسهم ويضحك بقلبٍ منشرح لم يعرفه منذ ليلة الحريق.

المشهد الثالث: اعترافٌ في حضرة الصمت

بعد أن استقر بهم المقام، نظر ليو إلى لونا بجديةٍ بالغة، وبصوتٍ يملؤه الندم قال: "أنا آسف يا لونا.. لكل تشتتٍ سببتُه لكِ مع عائلتك، لكل دمعة ذرفتها القاضية روسي بسببي."

سكتت لونا لحظة، ثم اقتربت منه حتى لامست أصابعها يديه، وقالت بهدوءٍ زلزل كيانه: "ليس ذنبك يا ليو.. وحتى لو كان حبك خطيئة في أعرافهم، فستظل أجمل وأطهر أخطائي التي سأفتخر بها للأبد."

تغيرت ملامحه، وارتسمت على وجهه ابتسامة النصر. ثم، وبغمزةٍ خاطفة ذات مغزى نحو أمه، أعطى الإشارة المتفق عليها. أخرجت إليزابيث من حقيبتها علبةً مخملية صغيرة، فتسمرت لونا في مكانها، وشعرت أن الهواء في القاعة قد أصبح عطراً فجأة.

المشهد الرابع: ركوعُ الملك

وقف ليو بشموخ، أخذ نفساً عميقاً كأنه يستجمع شجاعة العالم كله في صدره.

"لونا.." نادى اسمها، فاهتز كيانها.

"لقد وقفتِ معي حين أراد العالم رحيلي، ضحيتِ بملككِ ومنصبكِ لأجل بقائي، وتحملتِ من أجلي ما لا تطيقه الجبال."

ثبت عينيه في عينيها اللتين تلمعان كالياقوت: "أنا أحبكِ.. حباً لم يُكتب في رواية، ولم يُلحن في أغنية."

فتح العلبة، وركع على ركبتيه فوق أرض السجن الباردة، ليجعل منها قداسةً لا تُنسى.

"هل تقبلين الزواج بي؟"

ساد صمتٌ مهيب قطعته ضحكته الرقيقة وهو يضيف بمزاحه المعهود: "طبعاً.. هذا إن كنتِ مستعدة لانتظاري حتى نصبح شيوخاً نتشاجر حول من نسي نظاراته الطبية!"

انفجر الجميع بالضحك، حتى الحارس الذي كان يراقبهم من بعيد لم يستطع منع ابتسامة إعجاب من الارتسام على وجهه. وضعت إليزابيث يدها على صدرها وهي تهمس: "يا رب.. أطل عمري لأرى أحفادي منهما."

المشهد الخامس: عناقُ الخلود

احمرّ وجه لونا خجلاً وفرحاً، ونظرت إليه بعينين تفيضان بالرجاء والولاء المطلق. همست بكلمة واحدة اختصرت مستقبلهما: "أوافق."

نهض ليو بلمحة بصر، وضمها إلى صدره بقوةٍ عارمة، غارقاً في عناقٍ دافئ، مليء بالرومانسية التي لم تستطع القضبان كسر كبريائها. ألبسها الخاتم؛ كان بسيطاً في مظهره، لكنه في قلب لونا كان أثمن من تيجان الملوك.

تعالت تصفيقات إخوته، وانهمرت دموع الفرح من عيني أمه. ولأول مرة في تاريخ هذا المكان الموحش، لم يعد السجن مقبرةً للأنفس، بل صار محراباً لوعدٍ أبدي.. وعدٍ يقول إن الشمس ستشرق يوماً، حتى

من وراء الجدران.

2----------

المشهد: تراتيل الغفران (عند قبر ويليام والكر)

المكان: المقبرة المركزية – قطاع القضاة والمسؤولين.

الزمان: قبل خروج ليو من السجن بأيام قليلة. شمس الخريف الدافئة تلقي بظلالها الطويلة على القبور الرخامية.

تتقدم لونا بخطوات هادئة، يلفها وشاح أسود رقيق. لم تعد تلك الفتاة الغاضبة التي كانت تصرخ في أروقة القصر. تحمل في يدها باقة صغيرة من زهور "الزنبق الأبيض" – الزهور التي كان والدها يفضلها.

تتوقف أمام القبر الذي نُقش عليه بخط عريض: "ويليام والكر – حارس العدالة".

تضع الزهور ببطء، وتجلس على الحافة الحجرية، تمسح ببراح كفها الغبار عن الاسم، وتهمس بصوت يرتجف شوقاً:

— "صباح الخير يا أبي.. لقد مر وقت طويل، أليس كذلك؟"

تصمت للحظة، وكأنها تنتظر رداً لن يأتي إلا عبر نسيم الهواء.

— "أتيتُ اليوم لأخبرك أنني لست غاضبة. لسنوات، كنت أحمل في قلبي ثقلاً تجاهك، كنت أظن أنك طعنتني حين جعلتني أحكم عليه. لكنني اليوم، وأنا أقف على عتبة حياة جديدة، أدركتُ أخيراً ما كنت تحاول فعله."

تتنهد بعمق، وتنزل دمعة هادئة على خدها:

— "لقد كنت تحاول حمايتي بطريقتك القاسية.. أردت لي أن أواجه الحقيقة وجهاً لوجه لكي لا أعيش في وهم. واليوم، أنا مدينة لك بشيء لم أكن أفهمه.. لولا ذاك الحكم، لما عرفتُ قيمة التضحية، ولما عرف ليو قيمة الندم. لقد جعلت منا بشراً جديداً يا أبي."

تلمس الرخام البارد بحنان، وتكمل بصوت مليء بالأسف:

— "أنا آسفة لأن كلماتي الأخيرة لك كانت اتهاماً.. أنا آسفة لأنني لم أمنحك فرصة لتعانقني قبل أن ترحل. لكنني اليوم أسامحك.. أسامحك على كل لحظة صمت، وعلى كل قرار قاسٍ. وأرجو أن تسامحني أنت أيضاً.. لأنني اخترت قلبي على مطرقتك."

تقف لونا، وتعدل وشاحها، وتنظر إلى السماء بابتصافية:

— "بعد أيام سيخرج يا أبي.. سنذهب بعيداً، لنبدأ من الصفر. سأحمل اسمك بفخر، لكنني سأعيش الحياة التي حلمت بها أنا، لا التي رسمتها لي. نم بسلام الآن.. ميزانك قد استقر، وميزاني أنا.. وجد طريقه للحب."

تنحني وتقبل طرف القبر، ثم تستدير وتمشي بخطوات واثقة نحو البوابة، تاركة خلفها سنوات الوجع، ومستعدة لاستقبال "ليو" بقلب خالص من أي غل.

الفصل الرابع والثلاثون:

ميزان القلب.. واللّقاء الأخير

المكان: المستودع القديم المهجور.. حيث بدأت الحكاية بدموع الخوف، وانتهت بدموع الخلاص.

الزمان: غروب يومٍ بارد، بعد 10 سنوات من نطق الحكم الذي شطر الروح نصفين.

كان الهواء يحمل رائحة الصدأ والذكريات، والسماء تتشح بلونٍ أرجواني كئيب يشبه نغمة كمانٍ حزينة تعزف في الفراغ. انفتح باب السجن الحديدي العظيم بصوتٍ معدنيّ ثقيل، ليخرج منه

"رافاييل مارتينيز"

لم يخرج "ليو" المتمرد الذي يرتجف له الشارع، بل خرج رجلٌ بملامح نحتتها الأيام بقسوة، وشعر غزا بياضه صدغيه كأنه غبار السنين التي سُرقت منه. وقف وحيداً بلا حراس، بلا سيارات سوداء، وبلا رفاق.. فقط هو وظله المنكسر على الرصيف.

على بُعد خطوات، وتحت ضوء عمود إنارة خافت، كانت تقف امرأة بملابس بسيطة، وشال صوفي يلف كتفيها. لم تعد "القاضية والكر" التي ترتجف لها القاعات، بل كانت "المرأة العاشقة".. لونا التي غزا التعب ملامحها لكن عينيها ظلتا كمنارتين في ليلةٍ عاصفة.

بينهما، كان شريط الذكريات يمرّ كإعصار: ليلة النافذة، رنين الأصفاد، صرخة الجنازة، وذاك الخاتم البسيط الذي تآكل في يدها من كثرة الانتظار.

اقترب ليو منها، وصوته المبحوح يخرج كأنه قادم من أعماق بئر:

— "لقد فعلتِها حقاً.. انتظرتِ الرجل الذي أرسلتِهِ إلى الجحيم بيدكِ، يا قاضيتي."

تقدمت لونا نحوه بخطواتٍ مثقلة بالحنين، أمسكت يده الخشنة التي حفر فيها الشقاء أخاديداً، وقالت بنبرةٍ تجمع بين القوة والوجع:

— "لم أرسل حبيبي إلى السجن يا ليو.. أنا أرسلتُ 'المجرم' الذي كان سيقتلك لو بقي حراً. كان الثمن مطرقتي ومنصبي، وكان المقابل هو أنت.. أنت فقط."

نظر ليو إلى يديها، ثم إلى ثيابها المتواضعة، وقال بغصة:

— "لقد خسرتِ كل شيء بسببي.. هيبتكِ، اسمكِ العريق، وتلك القاعة التي كان الصمت يفرض فيها بمجرد دخولكِ."

ابتسمت لونا بمرارة، لكنها ابتسامة تحمل راحة المحارب الذي عاد لمنزله:

— "على العكس يا ليو.. في اللحظة التي وضعتُ فيها استقالتي على تلك الطاولة الخشبية، شعرتُ لأول مرة أن ميزان قلبي قد استقام. القانون أخذ حق المجتمع، وأنا الآن آخذ حقي في الحياة."

في تلك اللحظة، توقف الزمان عن الدوران. سقطت كل الأسوار، وتلاشت كل الأحكام القضائية. ارتمى ليو في حضنها، وعانقها عناقاً حاراً طويلاً، عناقاً امتزجت فيه رائحة الحرية بدموع الندم. كان جسداهما يرتجفان كأنهما يحاولان تعويض عشر سنوات من البرد في لحظة واحدة.

مشيا معاً نحو سيارة قديمة مركونة في الظل، يبتعدان عن المستودع، وعن المافيا، وعن صخب المحاكم. اختفيا في الأفق الرمادي، تاركين خلفهما أسطورة ستظل تتردد في أروقة العدالة.. قصة الحب التي لم يكسرها الحديد، والعدالة التي لم يفسدها العشق.

الفصل الخامس والثلاثون والأخير

ميثاق المزرعة.. والهروب نحو الحياة

بعد عناق المستودع الطويل، لم تذهب به لونا إلى القصر، بل قادت السيارة نحو طريقٍ جبلي متعرج، يرتفع حتى يكاد يلامس الغيوم. كان ليو ينظر من النافذة بصمت، والفضول يلمع في عينيه.

توقفت السيارة فجأة أمام بوابة خشبية عتيقة. اتسعت عينا ليو، وتجمدت أنفاسه.

على رأس الجبل، كانت تقبع المزرعة. نفس التفاصيل التي كان يحكيها لها في ليالي السجن؛ الحديقة التي يملأها الخزامى والياسمين، السور الأبيض، والنوافذ الواسعة التي تطل على الوادي.

ضحكت لونا بطفولية وهي ترى ذهوله:

— "ما بك؟ هل تظن أن القاضيات لا يعرفن البناء؟"

رد ليو بصوتٍ مخنوقٍ من شدة التأثر:

— "لقد أعدتِ بناء حلمي.. قطعة قطعة."

أمسكت يده وجرته خلفها وهي تركض كطفلة تحرر أسرها، تدخل به إلى المنزل وتدور في الصالة الواسعة:

— "انظر! هذا الصالون، هنا سيجلس ضيوفنا، وهنا المطبخ.." غمزت له بخبث: "هنا سأحضر لك وجبة 'اللازانيا' التي كنت تهذي بها، لكن هذه المرة لن أسمح لك بسكب الحساء!"

ضحك ليو بملء قلبه وهو يراقب حماسها، لكن حين فتحت باب الغرفة الرئيسية، توقف العالم. كانت صورتهم القديمة، قبل عشر سنوات، معلقة فوق السرير. همست لونا: "غرفتنا.."

ثم انتقلت لغرفة مجاورة، كانت فارغة ومطلية بألوان هادئة. سألها ليو بحنان: "ولماذا هذه فارغة يا لونا؟"

احمرت وجنتاها وتلعثمت بابتسامة خجولة: "هذه.. هذه لأطفالنا.. الذين سينتظرونك لتعلمهم ركوب الخيل."

لم يتمالك ليو نفسه، اقترب منها ولامس وجهها بأصابع ترتجف من العشق، همس بكلام معسول لم يقله سجينٌ من قبل، كلامٌ جعل قلبها يقرع كطبل حرب. نظر في عينيها بعمق وقال: "هل تدركين حقاً أنني أريدكِ.. الآن وللأبد؟"

مشهد عقد القران (على الطريقة الإيطالية)

فجأة، وبحركة مباغتة، شدها ليو من يدها وجرها نحو السيارة بسرعة البرق.

— "إلى أين يا مجنون؟" صرخت وهي تضحك.

— "لن أنتظر ثانية أخرى!"

انطلق بها إلى مبنى البلدية الصغير في القرية الجبلية. هناك، وفي مشهدٍ إيطالي كلاسيكي أمام موظف السجل المدني، أقعَدها على مقعد "عقد القران". كانت لونا مصدومة، تتلعثم من الفرح والدهشة.

صرخ ليو بحماس كأنه مراهق: "أنا، رافاييل مارتينيز، أقبل بهذه المجنونة زوجة لي.. هل تقبلين بي؟"

ردت لونا بصرخة هزت أرجاء القاعة: "نعم! نعم ألف مرة!"

وقعا الأوراق والدموع تسبق التواقيع. التفت ليو للموظف وللشهود الموجودين صائحاً: "اعذروني.. لقد جُننت، عشر سنوات من الصبر جعلت عقلي يطير!" ضحك الجميع على جنونه الجميل.

العودة والمفاجأة الكبرى

حين عادا للمزرعة، لم يجدوا المكان فارغاً. كانت الساحة ممتلئة بالناس؛ إليزابيث تبكي فرحاً، إخوة ليو ببدلاتهم الأنيقة، أم لونا، وإخوتها، وحتى "بين" الذي كان يوزع الحلوى صائحاً: "لقد فعلها المجرم وخطف القاضية رسمياً!"

انطلقت الزغاريد والتهاني. رفع ليو يده وهو يمسك يد لونا بشدة، صائحاً بفخر: "اليوم.. العشاء سيكون على شرفي في منزلي!"

في المساء، تحت ضوء النجوم وهدوء الجبل، وقف ليو أمام لونا، أحاط خصرها بيديه ونظر في عينيها نظرةً احتوت كل معاركهم وانتصاراتهم. همس في أذنها بكلامٍ رومانسي، كلامٍ أذاب ما تبقى من صقيد السنين:

— "زوجتي.. أنتِ لستِ مجرد امرأة، أنتِ أعظم انتصار حققته في حياتي. لقد ربحتُ الحرب لأنكِ كنتِ جائزتي."

غرقا في عناقٍ دافئ ، عناقٍ مسح كل آلام الماضي، بينما كانت الرياح الجبلية تهمس بين الأشجار:

"وهكذا استقام ميزان العدالة.. بالحب وحده.

وهكذا، أُغلق المحضر،

وجُفف الحبر عن الأوراق. كانت هذه قصة "ميزان العدالة"؛ القصة التي علمتنا أن الحق لا يكون دائماً في نصوص القانون الصماء، بل في ضمائر القلوب الشجاعة. لقد كانت لونا تملك كفتين: كفة القانون وكفة الحب.. وبينما اختار العالم إحداهما، اختارت هي أن تضحي بالاثنين لتصنع ميزانها الخاص.

لقد رحلا.. بعيداً عن ضجيج العالم، ليثبتا أن النهاية لا تكون دائماً بالانتصار، بل بالقدرة على البقاء معاً فوق الأنقاض. ففي محراب العشق، لا يوجد قاضٍ ولا مجرم.. يوجد فقط قلبان، اختارا أن يشيخا بسلام.

ميزان العدالة

- **الميم: مأساةُ ذنبٍ طاردت القلوب.**

• الياء: يقينٌ بأن الحب أقوى من القضبان.

• الزاي: زلزالُ اختيارٍ بين الواجب والرغبة.

• الألف: استقامةُ الضمير في اللحظة الفارقة.

• النون: نهايةُ عهدِ الألم.. وبدايةُ عهدِ الوفاء.

"عندما يكون الحب هو الحكم.. يصبح السجن مَمراً للحرية، وتصبح التضحية هي العدالة المطلقة..

خاتمة

وفي الأخير.. ميزان العدالة هو ملحمةٌ لم تكتبها القوانين، بل سطرتها التضحيات. قصةٌ تخبرنا أن "العدالة" ليست دائماً ميزاناً حديدياً يزن الجرائم، بل هي ميزانٌ من نور، يزن صدق القلوب.

لقد سقطت مطرقة القاضية، وانكسرت أصفاد المجرم، ولم يتبقَ في النهاية إلا الإنسان.

لونا وليو؛ حكايةٌ بدأت بظلم القدر، وانتهت بعدالة الحب.

إهداء.. إلى كل من اختار قلبه في عالمٍ لا يؤمن إلا بالورق والقانون."

إنتهىٰ.... ⚖️